علي بدر

خرائط منتصف الليل

رحلات

خرائط منتصف الليل



علي بدر

خرائط منتصف الليل







المـــــؤلـــــف : علي بدر
عنوان الكتـــاب : خرائط منتصف الليل
النـاشـــــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٩
الحقوق محفوظة

Author: Ali Bader
Title: Maps of Midnight
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- ابو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com




مكتبة
الفكر الجديد

تصدير الرحلات

"أولئك الذين يرحلون

على خرائط منتصف الليل

إلى المدن البعيدة

يروون عن سعادة النهار..ويخبرون أيضا"

Le voyageur

Jean Olpajan




مكتبة
الفكر الجديد

الإهداء

إلى ليليان حايك وجينا كساب

وأحمد أورهان ومعصومة آصفي

في ذكرى المدن التي زرناها ... ذكرى البحر والحجر




مكتبة
الفكر الجديد

المقدمة

في البـاخـرة الـتي أقلتني إلى بيـروس..تذكـرت المقـطع الذي أجـبـر آرثور رامبو على الهجرة والرحيل إلى أفريقيا:

(إن السـمـاء المخـضـبة بالبطولة تؤذن بالليل لا بالنهـار..إن الحـيـاة الحقة هناك ..في مكان آخر).

من الذي يدفعنا اليوم إلى الهـجرات والرحـيل إلى المكان الآخر .. حلم اللاعـودة.. أم الحلم بالوصـول.. المنفى والمكان المسـتـحـيل أم الصـورة الاستعارية للفردوس؟

الفكرة التـقديسيـة غيـر الهندسيـة للكون (الـكوزموس)، أم الأصـول الأولى لآدابنا الشرقية والتي تعني البحث عن العالم المكتنف بالغموض، والمحاط بالجمال العصي على الوصف؟

الأحلام غيـر المتبلورة عن الفردوس الأرضي، أم المكان المجهـول دون حدود؟

كان الضباب الإغريقي العـميق يحجب المشـهد، وعلى صـوت هدير الباخرة وتوافد المسافرين والبحارة الذين يهرولون بملابسهم التي تجذب النساء، والحديث الذي يضيع في هدير محركات الباخرة وصافرتها وهي ترسو، وعلى صوت الجرس الذي يقرع بلا انقطاع، كنت أفكر ذلك اليـوم



بالحرب التي خضناها، كنت أفكر بالرحيل العظيم ..بالهجرات ...بالمنافي الكثيرة والتي ربما لا تجيب على أي سؤال من الأسئلة التي طرحناها. كنت أفكر بالمصير الغامض الذي يشوش أكثر مما يحجب ظلمة المشهد، أفكر بالأشكال العديدة وبالوجوه التي لا تحصى والتي تسبب تناقض الآرا ء والأحكام دون شك، أفكر بالمجهول الذي ننطلق لنكتشفه، أفكر بالطرق الغامضة التي كنا نتتبع أثرها..أو على الأقل لنتتبع المشاهد التي مثلتها الأحلام العظيمة للناس وهي تهرول نحو مصيرها الحاسم، صحيح ...لم ينقل أحد منا إلى اليوم لغة غير معروفة، أو خبرا عن عرق مجهول، فمنذ سنوات لم تهز البشرية اكتشافات جغرافية كبرى على الأرض، لكني كنت أعرف على الدوام أن الفن هو الذي يجد في العالم الغامض وغير المعروف جوابه الأخير.

بماذا كانت تجيب رحلاتنا وهي مختلفة كليا عن رحلة أولئك المغامرين الذين كانوا يقطعون الصحرا ء في طريق الحرير، أو درب الظلمات في المحيطات تحقيقا لحلم الفنانين بالألوان المشعة، أو حلم الصحراويين بالنبات الوفير، أو حلم الفلاحين بأشجار من أوراق ذهبية وفضية، أو حلم الفقرا ء بفواكه عجيبة، أو حلم التجار بوفرة من الأحجار الثمينة والتي تشكل الكنوز التي كان العالم الأسطوري يخفيها في العصر الوسيط، وبدلا من أن تعمل المراجع التوثيقية التي ظهرت فيما بعد على تصحيح وتوضيح هذه المفاهيم، قامت بتغذيتها ومدتها بكل خيال ممكن...

بماذا تجيب رحلاتنا ولم تعد كما كانت تكشف عن المجهول الديني خارج خرائط الرحالة وخارج جغرافيات بلدانهم، أو كانت على الأقل



تجيب على أسئلتهم الميتافيزيقية التي تتجاذبهم وتهدم أكثر مما تمسح الصورة الأسطورية النمطية للكون، أو الخوف من السقوط بتأثير الرحلات إلى الفضاء السديمي والجن والأموات؟

*

منذ العام ١٧٥٤ لم يعد العالم مجهولا، ومثال المتوحش الطيب الذي كنا نمثله لروسو، ولشاتوبريان فيما بعد، أو المتوحش وكفى لابن فضلان لم يعد موجودا، غير أن ما يتكرر هو نوبات جنون التاريخ، رحلات الجنود لغزو أراض بعيدة كما كانت حملة الأطفال (مئة ألف طفل مسيحي انطلقوا وحدهم إلى أورشليم فأبيدوا أو أخذوا عبيدا)، وعالم السياح السهل والبسيط جدا، ونهاية العالم الفنطازي والمدهش والذي أصبح في عصرنا في ماض وبقعة غير محددتين أبدا، وهكذا انتهى كل غزل بريء بالكون، وانتهت جنة عدن دون شك مع الحوار الأعمق مع زحمة الأخبار والهلوسات ونوبات الجنون التي جعلت من تمرد أنطيغون خبرا عائما.

إذن ما هي الأسئلة التي تجيب عليها رحلاتنا بعد أن سحقت الإنسانية تحت الأخبار الوفيرة كل أساطيرها؟.. بماذا تجيب رحلاتنا بعد صعود المعارف الانثروبولوجية والإثنوغرافية والطبيعية لتعزز الرحلة كما كانت مصادرها حول التعصب الديني، ونظريات الاستبداد السياسي، ومفاهيم العقلانية والتنوير واليوتوبيا؟

بماذا تجيب رحلاتنا بعد أن ماتت الرحلة الرومانطيقية التي دشنها الفكر الكلاسيكي العظيم، وماتت الرحلات التبشيرية تحت العقلانية والعلمانية التي تجتاح الكون، حتى وإن أحيت هذه العقلانية المرتدة



الحروب الدينية بذريعة تشبه ذريعة الدفاع عن بيزنطة، إنه العصر الذي عجل من يقظتنا كما قال اندريه ميكيل، وعجل من يقظتهم عن طريق الرحالة الذين رأوا وشاهدوا وأخبروا، وهو أمر ينطبق علينا على أية حال، فالرحالة الذي شاهدوا الغرب هم الذين نقلوا عدوى التحديث إلينا بطبيعة الأمر..وبعد كل هذه الجهود نجد أنفسنا نردد صرخة جوليان غراك.."لا أحد يعرف الشيء الكثير عن بلاد فرغستان..".

أقول -أنا الذي عدت توا من الرحلة- بعد كل هذه التجارب الملهمة، بعد كل هذه التجارب التي دفعتنا جميعا للرحيل، لا نخجل من أن نردد ولو مع أنفسنا: (كان يمكن لأورسينا أن تكون وراء بحر السيرت..). كما توقع ذلك بطل غراك...كما توقعنا نحن..كما توقع الآخرون...غير أنه العصر يا (ناتنائيل) وأنت تبحث عن القوت الأرضي، العصر الذي قلل تحت الثورة النشيطة رحلات الحج في الإسلام، ورحلات الرهبان الكبوشيين في جغرافيا التراث البيزنطي، وقلل من شأن الحكايات والقصص التي انبنت أصلا على ديكور الشرق وعاداته وسلوكه، وخفض من قيمة مذكرات ورحلات الجنود، وجعل مغامرات البحارة وجوابي البحار أمرا تافها، وأصبحت الأراضي المجهولة معروضة ومكشوفة لكل من يريد.

إذن....أين المجهول بعد الوفرة الفنية والجمالية لهذا العصر؟

*

منذ زمن بعيد ونحن لم نسمع عن اكتشاف جديد يدهشنا، ومذكرات الرحالة أصبحت أقرب إلى دعايات وكالات السياحة والسفر منها إلى الاكتشافات العظيمة الكبرى، أو فتوح التاريخ والتي أنجزها



رحالة عظماء مثل ابن فضلان أو كارستن نيبور، كما أن العصر الحديث وبالمعنى الذي تحدث عنه بطل خليج السرت أنهى فكرة التوغل في الصحراء وما يتاخمها من مدن بعيدة ومجهولة كما كان يصر عليها أبن بطوطة أو بسيشاري أو ناتنائيل بطل القوت الأرضي لأندريه جيد، كما أن الطواف مع القوافل دون دليل أو نقطة محددة لم يعد يمنح الصدفة التي تقود إلى تتبع طرق مختلفة، ومسارب متنوعة من المجاهل، وهكذا انتهت قصص المغامرين وحلت محلها حكايات السياح المتقاعدين والأنصاف متعلمين والأدباء والصحفيين غير الموهوبين، وانتهت المذكرات العظيمة لأولئك الذين تاهوا أو ظلوا الطريق في الصحراء أو في البحر، ولم يعد هنالك أدلاء يقرنون الشجاعة بالقوة والذين عانوا من العنف المحروم من البصيرة ومن العزلة غير أنها منحتهم التنوير...كما كان نيتشة يصرخ: (قيصر بورجيا ولا بارسيفال).

.. فالبطل الذي ينتهك أعظم بما لا يقاس من طاهر النفس الذي يموت في الظلمة.

*

إن الشغف بكل ما هو غريب لم يتوقف حتى اليوم، ليس من أولئك الذين عاشوا في المتروبولات الكبيرة المغشية بالفضاء الرمادي، والفحم، والدخان، والسخام، والطين، والذي ولد لديهم الاستيهام بالشمس، والرغبة الجديدة في الارتواء المحسوس، إنما حتى منا نحن الذين عشنا تحت الشمس، فالشغف بالغريب هو الرغبة بالانبعاث الجسدي، وهكذا فإن الرحلة هي التطلع المتعاظم للنشوة، وهو ما يجعل نص الرحلة مفككا، ومعيوشا بسبب بعدها السيروي وبسبب فوريتها، ومباشرتها،



من غير أن نتوهم أشياء عجيبة كما كان يتوهم ذلك الرحالة الغربيون، الوهم الذي فضحه نرفال في رسالة إلى غوتييه بعد رحلته إلى مصر[١].

*

ويبقى السؤال الأكبر والذي ينهض على سؤال يتحمل الكثير من الاحتضارات، احتضارات الناس والأمكنة أيضا: كيف نكتشف المكان؟ كيف نكتشف المكان بعيدا عن عاديته، وبعيدا عن كل ما يجعل منه مألوفا؟ وأنا لا أقصد هنا المكان المجهول أبدا، لأنه لم يعد هنالك مكان مجهول مطلقا، لا بسبب هذه الوفرة المعلوماتية التي طبعها عصرنا علينا، إنما لسقوط الأسطورة الغربية، التي كانت تعد المجهول كل ما هو خارج جغرافيتها، واندحارها، فما هو مجهول نسبة لي هو معلوم لساكنيه، ولا مركز للكون هنا ليقرر أو يحكم..إذن يبقى السؤال الأصعب هو الكيفية التي نكتشف فيها المكان بعد سقوط مجهوليته، ونهاية تهميشه؟

*

أتذكر الآن وصولي الأول إلى اسطنبول، كنا نسير على ضفة من الحصى قرب البحر، وكان الظلام دامسا، وفي الغسق الشفاف كان رذاذ

١ . "آه يا صديق، كم رأينا -أنا وأنت- خرافة الرجل الذي يجري وراء الثروة وهو على سريره . . . فأنت ما زلت تعتقد بطائر أبي منجل، وزهرة اللوتس الحمراء القانية. والنيل الأصفر. وتؤمن بنخلة الزمرد. والصبار الهندي. والجمل وحيد السنام..ولكن للأسف فطائر أبي منجل هو طير بري. والنخلة بهيئة منفضة الريش الهزيلة. والصبار الهندي ليس سوى صبار بري. ولا يوجد بعير إلا وهو في هيئة وحيد السنام. والعالمات هن أشبه بالذكور. أما ما يخص النساء الحقيقيات، فأنت سعيد لأنك لم تلتق بهن... .
وبعد ذلك يقول نرفال إلى تيوفيل غوتييه:
"آه كم جميلة القاهرة ..ولكن من باريس..." .



البحر يضرب وجوهنا، انتابني تلك اللحظة شعور غريب، شيء أشبه بلحظات نسيان أو نوم، حركة الظلام التي تسقط في المياه العميقة في البحر، صوت الصخرة التي يضرب بها الموج، وهذا العشب الغض والذي كنت أجاوره بحذائي، أحسست بدما ء عنيفة تنبض في داخلي، تدفع عني الضعف والنوم والخور والنسيان، شيء يلهبني، شيء يجعلني أركض أو أنغمر بالماء..أتحد بالبحر والفضاء والرمال ...الرحلة ببساطة هي هذه...الرحلة تمرين حي على الشعر..تجديد وانبعاث للجسد مثلما يجدد الشعر بفعالية جسد اللغة ويمنع عنها التكلس والموت...مثلما يهزها أو ينفضها بقوة، ويجعلها نابضة فتية تتلاءم بشكل فتان مع عواطفنا..الرحلة هي الشعر، أي بمعنى آخر هي إخلاص للمعرفة والتحرر، شيء يضاء في الروح وفي الدم واللحم، دروب تنار من جديد تمنحها نظرة متجددة، والرحالة شاعر تائه تسيطر عليه فكرة عمر الإنسان وعمر الأرض، وروح المكان، الرحالة شاعر أصيل وغامض، مكتشف رائد، مليء بالأسرار، إنه مثل الشاعر متوحش قليلا، وحيواني أيضا لأنه يفترس الجمال بنهم مثل حيوان جائع.

*

الرحلة هي البحث عن سعادة النهار في خرائط المدن، البحث عن المكان الذي يثير كل ما هو شهواني وأرضي في تجربة الغموض التي يكشف عنها، والقلق والانفصال الذي يذهب ويعود، والأرض الباردة التي تتحول إلى شعر غنائي للتجسد، والمدن التي تختزل في تعاقب وتركيز وكثافة، وتتفجر صوراً.

الرحلة تجدد المدن بالنظرة وبالروح..تغيرها وتنعشها، تجعلها



متجددة لأنها تعطيها قيمتها. فمدننا التي نألفها ولا نراها سنراها مرة أخرى بعيون الآخرين، بعيون الرحالة الذين يهبونها صورة جديدة ونظرة عميقة سنراها نحن أيضا على خلاف ما كانت تبدو لنا، وهكذا سيرى الآخرون مدنهم التي ألفوها بعيوننا.

الرحلة منذورة للشعر من جهة ومنذورة للحقيقة من جهة أخرى، وهذا التوتر والصراع يمنحها جوهرها الوجودي، يعطيها روح الكائن، أي أن المكان يبطل أن يكون فضاء خاليا أو مادة أو جمادا، ويتحول إلى كائن حي يعيش ويتنفس، الرحلة تمنح المكان مفاتيح الفردوس، مثلما المكان يمنح النص أبديته الحية ويجدده، فالمكان الذي يتجدد عبر النص يؤثر في النص، يمنحه صورة جديدة ومعجما جديدا ونسقا إنشائيا جديدا، إنه يجدده ويثريه، ويغنيه بالصور والأحداث والعواطف، وهكذا كان الشعراء يسيحون بحثا عن مكان يجدد لهم معجمهم وصورهم وحياتهم، هذه العلاقة المتبادلة بين النص والمكان هي النصر الحاسم على الموت، موت اللغة أو موت المكان، كما أنه تجديد لحوار الكائن مع مخلوقاته ومع خالقه، إنه النور... النور الأبدي الذي يأتينا من هذه الجهة ونرى تأثيره على التراب...كما في قصيدة غوتييه:

حينما يتقدم المركب مسحوبا بخطوات وئيدة

تبدو النفس وهي طافية بعذوبة في الفراغ

حيث يسهرون وهم ينصتون لصمت السهول،

يصغون لصمت البجع الذي يفيق نصف إفاقة

والكلب الذي ينبح على عتبة الأكواخ البعيدة

والهمسات الموشوشة للنهر العظيم النائم.



في ظلال البازار الكبير
رحلة إلى اسطنبول

(رويداً رويداً، بتمهل وبطء، وكمثل من يكتشف متحسساً بيديه جسد امرأة غريبة تعرَّفت عليك، مع أنك موجودةٌ دائما. منذ أن اقتنع (المغاريون) بأقوال كاهن دلف وسكنوا في شبه الجزيرة المقابلة لشاطئ العميان، بل وقبل ذلك بكثير، منذ أن بنى الإنسان الأول ملاجئ القصب عند مصب نهر (كاغيت هانه) في الخليج، لتحميه من الوحوش الكاسرة، منذ ذلك الوقت موجودةٌ كنت وحتى الآن).

مقطع من كتاب حبيبتي اسطنبول
للكاتب التركي نديم غورسيل




مكتبة
الفكر الجديد

-1-

الوصول إلى المدينة العظيمة

حين وطئت قدماي اسطنبول أول مرة كنت أعرف جيدا أي أرض وطئت..لا أتحدث هنا عن التاريخ وهو أمر لا يمكن إهماله بأي حال من الأحوال..ذلك لأنها مدينة تجاوزت هذا الحس العادي الذي نطلق عليه مدينة التاريخ لأنها مدينة صنعت التاريخ ورشحته وعممته ..بل شغلت الناس وشغلت التاريخ على مدار القرون الخمسة المنصرمة.

*

كان السائق كبير السن بلحية بيضاء مدببة، يرتدي قميصا أزرق، ويضع على رأسه بيرية حمراء قانية، سار بي هادئا من مطار أتاتورك الواقع شمال شرق اسطنبول نحو فندق فيلا زويرخ في ضاحية بايوغلو.

في الطريق، وقبل أن نعبر مضيق البسفور، كنت أقلب دليل الرحلة إلى اسطنبول الذي طبعته دار إيفير في باريس وقد أرسلته لي صديقة فرنسية كانت مولعة بالسفر إلى تركيا، وقد كتبت لي على غلافه الخارجي مقطعا من رحلة تيوفييل غوتييه إلى اسطنبول، غير أن هذا الدليل لم يكن يقدم سوى معلومات بسيطة ومبتذلة عن المدينة، فالوقائع التي تحيط بي والتي كانت تزاحمني من نافذة السيارة كلما رفعت رأسي



تكذب المعلومات التجريدية والسطحية المكتوبة بشكل مبتذل في الدليل، وعلى رصيف البحر حيث انعطف السائق بي كانت البواخر التركية شبه المتداعية مزدحمة كما لو كانت بواخر لاجئين، واسطنبول الصباحية تفوح برائحة الأحجار والأزهار الموضوعة في الزهريات بعناية.

بعد أن وصلنا إلى سركجي أخذ السائق يقود سيارته ببطء شديد، ثم انعطف نحو الجسر الذي يعبر مضيق البسفور:

كان الطقس منعشا. هبات باردة قادمة من البحر تضرب وجهي من النافذة، والإزدحام على أشده، الشوارع امتلأت بحشود الناس والسيارات، وعصافير الدوري تتسكع بمرح على الأرصفة المغسولة، باصات المدارس وراءنا يجلس فيها الطلاب الأتراك بيضا ومنضبطين، وعلى الشاطيء كان زحام المارة والبحارة بزيهم المميز، ورجال البوليس يقفون في الطابور كما لو كانوا يتهيئون لاستقبال إغريقي.

كان المسافرون يهبطون من المراكب البحرية، وجمهور آخر يصطاد السمك من حافة الجسر، وآخرون يجلسون على الأرض يعبّرون بشكل بسيط عن الكسل والبطالة واليأس الريفي.

يؤشر الدليل السياحي الذي في يدي المسير بخط واحد من غالاطا سراي إلى بايوغلو، وهو أمر لم يكن حقيقيا على أرض الواقع، غير أن السائق الذي أخذ يفقد أعصابه شيئا فشيئا صار يقرع الزمور بقوة وهو يحاول تجاوز زحام الظهيرة في اسطنبول. على الجانبين من الشوارع كانت المطاعم تتهيء لاستقبال متناولي الغداء، والنادلون الأشد تعبا يجيبون على الطلبات بصوت عال، وكل شيء حي ونابض: البوتيكات المفتوحة أبوابها، السواح النشطون الذين يسيرون ويتفحصون المكان،



الرجال الذين يتمددون في الشمس، رافعات البحر، مداخن القرميد، ولا وجود للصورة التقليدية للتركي: الشوارب المفتولة، القبعة الكبيرة، البنطلون الفانيلا، الجعبة الخاكية، والحذاء المثقوب، حذاء الأفّاق الرومانسي التي نتناقلها من جيل إلى جيل.

لقد حل محل التركي التقليدي التركي العصري: حليق الشوارب، بالملابس الإفرنجية، يحضن صديقته كما يفعل الشباب في لندن أو باريس أو تورنتو.

- وصلنا ساحة تقسيم. قال السائق.

ما قاله صحيح، لا لشيء إلا لأن الصورة التي في الدليل تطابق الواقع، الصورة الجامدة في الدليل أخذت تتحرك، أخذت تتحول إلى واقع، الطيور البنية التي تطير وتحط في الساحة، السابلة وأكثرهم من العشاق يرمون الحب على الأرض، رجل في الثلاثين من العمر يجلس على المقعد الخشبي في الساحة وقد تمددت صديقته إلى جانبه. سيدة مسنة تبيع الحب. سيدة أخرى تضع حقيبة على ركبتيها وقد أمالت عينيها نحو الساحة.

التفت الشوفير نحوي ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة، كلماتي التركية البسيطة شجعته، جعلته يتحدث لي قصة طويلة وأنا أوافقه دون أن أفهم منها الكثير، حركات وجهه وتحولات ملامحه تطلب مني استجابة ما، وأنا بين أن أنظر نحوه وبين أن أنظر إلى المشهد المتحرك أمامي الذي يجذبني، فأجيبه بكلمات تركية قليلة، كلمات قليلة تريحه أو تحفزه أو تهدؤه، أحيانا يرقب بصري وهو يلاحق سيقان الفتيات، أو مؤخراتهن وهن يخطفن على عجل من سيارتنا المتوقفة في الترافك



لايت، فيعلق بجملة أو بجملتين، وأنا أضحك، أحيانا يرسم صورا فكاهية بيديه، يعلق على أشياء لا أفهم كنهها.

حين وصلنا تقسيم أشار بيده إلى صورة كبيرة لنصر الدين خوجة "جحا" المرسومة على جدار عريض، ثم اشتعل الضوء الأخضر فانخرط بسيارته في أحد الصفوف المزدحمة. توقفنا مرة أخرى في شارع جيهان جادسي أمام مطاعم الشاورما. الترامواي الأحمر كان متوقفا في محطة استقلال جادسي، هرعت امرأة بحقيبة مشمعة وتوجهت نحو باب الترامواي وصعدت، أبواب تنغلق وتنفتح وسط الضجة، سائق يشتم آخر بالتركية، أكشاك مفتوحة: أكشاك بيع الصحف والكتب والمجلات، المحلات الهادئة التي تقدم القهوة والعصير والبوضة، مخزن بيع السجائر، صالون الحلاقة.

*

توقف أمام بوابة الفندق الزجاجية الكبيرة، في شارع جيهان، هبط مسرعا وترك باب سيارته مفتوحا، أنزل الحقائب بسرعة فتلقفها منه عمال الفندق، أخذت السيارات التي خلفنا تدق زمورها بعصبية. هبطت مسرعا، مددت يدي بجيبي أخرجت الليرات التركية وهي بالملايين، وأخذت أعد على يديه ببطء، بينما الزمورات ازداد ضوضاؤها، سيدة أخرجت رأسها وأخذت تتكلم بعصبية، شخص آخر أخذ يشتم، رجال آخرون أشاروا إليه أن يتحرك وهم ينظرون بدهشة نحوي، تلعثم وقد بدا الاضطراب عليه، لم تكن لديه فكة.

قلت له: خذ المليون واذهب ..لقد جعلت منك مليونيرا!!



ابتسم، شكرني، ثم وضع الأجرة في جيبه، ركض مسرعا، ركب سيارته وانطلق باتجاه شارع الاستقلال.

*

دخلت الفندق، لم يكن مرتفعا كثيرا، كان صغيرا، متواضعا، بثلاثة نجوم، ولكنه محايد وحميمي جدا، دخلت الصالة وتوجهت نحو موظفة الاستعلامات، توقفت أمامها وأخرجت أوراقي، وجواز سفري:

- عراقي.

- نعم.

- أهلا وسهلا.

ابتسمت ...أكدت لي الحجز، اعطتني ورقة، قدمت لي المفتاح، قلت لها بالتركية بأني أريد حجرتي مقابلة للبحر، ابتسمت كأنها لم تفهم ما قلته لها، التفتت إلى الشاب الذي يجلس إلى جانبها، وقد فهمني مباشرة، ابتسم لي، وقال لها بأني أتحدث التركمانية العراقية، ثم التفت نحوي وقال:

" هنا لا يفهمون إلا التركية الحديثة".

فأخرجت من جيبي كتاب تعلم اللغة التركية وأريته له. فضحك لأنه لا يقرأ إلا بالحروف اللاتينية، فقد تغيرت الحروف المستخدمة في تركيا منذ قرن من العربية إلى اللاتينية، ضحكنا دون أن نعرف سبب الضحك، كان كل منا يضحك على سبب ما في ذهنه لا علاقة له بسبب الآخر.

ثم نهضت الفتاة من مكانها بخفة، كانت جميلة، رشيقة، ترتدي تنورة قصيرة وقميصا دون أكمام، وقادتني من صالة المطعم نحو السلم لأن المصعد معطل هذا اليوم، فتاة جميلة ذكرتني بنساء دلفي:



توقفت أمامها..كانت الصالة تبكي بعد رحيل الضيوف من فراغها المحزن، وكان المصباحان الجداريان على جانبي المرآة منارين، والثرية لم تطفئ بعد، ومن عمق المكان فاحت رائحة البيرة ودخان السجائر والعطور الغريبة.

*

أمام الشقة التي سأقطنها كان العاملان يحملان الحقائب وينتظران أمام الباب، وصلنا إليهما وأنا أشعر بسحر المرأة الواقفة إلى جانبي، رائحتها الفذة، وحركتها المتناسقة، فتحت باب الشقة ودخلنا نحن الأربعة، السرير المرتب، المنضدة النظيفة، الفرش، الحمام، الشراشف، المناشف، والمصباح في الزاوية يلقي بنوره الرقيق على طاولة الكتابة:

شرفة تطل على البحر من جهة، ومن الجهة الأخرى على شارع جيهان، توقفت أمام المحجر الحديدي، لقد أسرني المشهد:

زرقة البحر الساكنة، البواخر الكبيرة المتجمعة عند الرصيف، الرافعات، سفن الصيد الصغيرة، ومن الضفة الأخرى من اسطنبول، الجامع الأزرق، جامع السليمانية الكبير،:آيا صوفيا، طوب قابي سراي...جلست أحدق بالمشهد وقد ارتخت أعصابي تماما... كنت أحدق بسفح التل البعيد، بالجزر التي تختفي في ضباب البحر، بالقلاع التي تعسكر حولها الأشجار الضخمة، بقطاف الثمار المكومة في الأكشاك على الرصيف، بالصيف الذي يغرّد عند الجسر، بالصيف الذي يغني في الظلال العميقة، بالصمت الذي يقترب من المقاهي ويبتعد عن الرصيف، بالود الذي يغري الطيور نحو الشبكة، بالحرية الحزينة التي تنقلها خطى النادلات، بالبحر الذي يتسلى بالرصيف وهو يمد مجرفته الطويلة الزرقاء عند الحجر...هل هنالك ما هو أجمل من هذا؟



النساء طبعا

النساء التركيات مثل نساء دلفي وأقصد:

نساء صغيرات، جميلات، كل واحدة منهن ذراعاها مشغولتان طوالَ النّهار بالحرير والأغصان الهشّة. نساء صغيرات أشبهُ بمصباحٍ. روحهن بخار وإكليلُهن عطرٌ، نساء صغيرات يذهبن دائرات أظهرَهن إلى البحر، ووجوههن إلى السماء، نساء صغيرات خفهن لا يدوس البلاط وحديثهن لا يباح... وصورتهن لا تمرّ دون جرس في الطريق، نساء نميز على وجوههن قمر المغيب وعلى شفاههن نداوة الليل...



-II-

ساحل البسفور

من ساحل البسفور...كنت أنظر إلى الأسوار، إلى صفوف الأزهار الشفافة، إلى التلال العالية العصية على التسلق.

من ساحل البسفور كنت أنظر إلى الكوى التي تغور في النهار الساطع، إلى البيارق التي ترفرف فوق الأبراج الحجرية، إلى الأزهار التي تتسلق جدران القصور البعيدة أو تحتضن البيوت الحجرية المطلّة، إلى الأشجار التي تحيط بكنائس اسطنبول القديمة، أديرتها الضخمة، إلى نافوراتها في المساجد، وأيقوناتها في الكنائس، إلى قبابها المذهبة، إلى فسيفسائها، إلى أعمدتها المرمرية، وزجاج نوافذها التي تلمع في الضياء الذي يتخلل الظلال.

*

هذا المشهد البسيط والمحايد يلح على ذاكرتي كلما سمعت هذه الكلمة السحر التي تنتمي إلى عالم الخيال أكثر مما تنتمي إلى عالم الواقع... اسطنبول.

حينما خرجت السيدة الصغيرة من حجرتي، لم يعد لي شيء أنظر نحوه سوى السماء التي أخذ لونها يتحول من الأبيض المزرق إلى الزرقة



الغامقة..انحنيت على السياج، نظرت إلى الشارع المزدحم القادم من شارع الاستقلال ويتقدم رويدا رويدا نحو رصيف البحر..ما زال الزحام على أشده: سيارات صغيرة، باصات كبيرة، تاكسيات، وسابلة يمرون أمام واجهة المقاهي والمطاعم والبوتيكات، كانت النوارس تحوم على القبب البعيدة وقد توهج الأفق خلفها زهريا ناصعا، لم أستطع رؤية شيئ من بعيد، كدت أنسى الغيوم البيض التي تشبه القطن، أنسى تلاحقها الجميل وقد دفعتها الرياح صوب الجزر في بحر مرمرة، أنسى أصوات النساء الرقيقة القادمة من أكشاك الزهور في شارع جيهان، أنسى زمورات السيارات وهي تنطلق، حركة الندل في المقاهي، السواح الروس والأميركان واليونانيين والبلغار في الشارع الجانبي حيث شيدت الملاهي والبارات، عيناي لا تستقران على الحجارة البيضاء، ولا على الجزر البعيدة ولا على الأفق الذي ينداح متلاشيا بالضباب صوب البحر، كنت أبحث في المدى عن سماء أخرى، عن سماء مفضضة تحتضن الزرقة الحبرية في بحر مرمرة، عن مراكب يلفها ذبول عظيم وسط مضيق البسفور، عن عنابر بعيدة لا يصلها التجار ولا البحارة ولا القراصنة، إنما يصلها أبطال الأساطير، كنت أبحث عن المتوسط وهو يمتد بزرقته الساجية إلى معابد الآلهة، إلى معابد الأولمب، وفي شرفة الصومعة الزجاجية كنت أشم رائحة التاريخ المالحة ممزوجة برائحة الصنوبر العذبة.

*

وهكذا كنت أبحث عن وصول آخر..إنه الوصول إلى المدينة العظيمة...الوصول إلى مدينة الأحلام والأساطير ..الوصول إلى مدينة المياه الشفافة، مدينة الغرب والشرق بأعمدتها التسعين وجوانبها الأربع.



أسماكها العظيمة ببريقها الذي يتلألأ ورائحتها الحادة جذبت أعظم الصيادين، أزهارها التي تتراقص في المياه جذبت الآلهة البيزنطيين، الأشجار التي حفت بها من كل مكان جذبت إليها الملائكة والشياطين.

اسطنبول... هي بيزنطة القديمة، شبه جزيرة العثمانيين، الأكربول القديم والأبنية الرسمية في المدينة اليونانية القديمة..الساحة التي يجتمع فيها الناس لمناقشة السياسة والتجارة في إدارة دولة المدينة في اليونان القديمة، هذه حماماتك، تماثيل آلهتك البرونزية، هذه أبوابك، آثارك الرخامية، ميدانك الفسيح الذي يتجمع فيها العظماء والخيول والمصارعون والمتسابقون، هذا ميناؤك الذي تفرغ فيه السفن حمولات الرخام، أنت إسلامبول..مدينة الإسلام ومتربولها العظيم...بعد أن تم للفاتحين دحر القسطنطينية...

*

اسطنبول هذه الكلمة التي عذبت سيفيرس طويلا..الكلمة-المفتاح..الكلمة التي تحرك المشهد البسيط الذي يحيط بي: الرصيف المغسول برذاذ البحر، أشجار الصنوبر التي ينعشها هواء الصباح، العجوز التركية التي تجلس في الشرفة في العمارة المقابلة للفندق الذي أقطنه وهي تروف الجوارب بيديها، وعلى مقربة منها حفيدتها بالملابس المختصرة تسقي زهور الظل، وفي أسفل العمارة كان الكناري في القفص المعلق تحت شجر الأكاسيا يلقي برأسه إلى الوراء ويشدو ثملا على برودة الهواء القادمة من البحر، هل هذه هي اسطنبول التي دوخت التاريخ؟ ساحة صغيرة بطيبها وزيتونها وعرائشها، بعزلتها وحرارتها وشذاها...أهذا قبر محمد الفاتح مثل ضريح نبي محاط بالزهور..أهذه



اسطنبول العظيمة والمنتصرة.. إذن أين ركائب السروج التي تسلقتها جزم السلاطين..أين السيوف التي كانت تبرق في ظلام التاريخ.. وأين السعف؟

كنت أقف هناك، في الزاوية الصغيرة من الشرفة، أنظر إلى شجر الضواحي، إلى القطع المدببة المصنوعة من الحجر أعلى المساجد الكبيرة، إلى الضوء الذي يبضع المقهى مثل سكين ويلقي بظل الشجر على الرصيف المغسول، أنظر إلى مستودعات البحر ناصلة الصبغة وقد جلس تحتها أتراك ضاحكون يدخنون السجائر أو يحتسون البيرة، ومن خلفهم بحار عميقة وبعيدة تنكشف من ظلمات التاريخ، تنكشف من مواجهات التاريخ ومن حروبه، من سكناته وهجماته، قوارب تندفع خلسة يقودها الأبطال، أديرة تتلامع وجوامع تنبثق شاهقة من الصخور، عبيد وخصيان ينقلون أنباء النصر إلى السلاطين، ونساء ينقلن الماء إلى النساك، أشجار النخيل التي لا تنحني أمام الرياح في الصحراء، وبغايا المدن في طريق حرير يقتحمن السوق المؤدي إلى مسجد المدينة، ورحالة يتهادون ويتجهون إلى الصحراء.

أقف هناك...النوافذ ذات الأقواس تكشف عن القاعات الواسعة، القصور البعيدة التي يضيء دهاليزها المعتمة نور قادم من البحر تكشف عن حكايات التاريخ، المآذن المدببة ترتفع، الغيوم البيض تعيق النوارس والقطارس وهي تهبط إلى البحر، وبرج غالاطا يبرز من وراء قباب ومآذن الجوامع...هذا سراي يلدز القصر الذي يحوي العديد من الأقسام والجوامع، يحوي البنايات التي شيدها السلطان عبد الحميد، ...قصر شاله كوشك والأمراء الذين يستظلون بأشجاره وأزهاره، القرن الذهبي



الذي يثير في الشجون أكثر مما يثير لدي الملاحظات الصارمة، هذا الخليج الذي يقسّم المصبَ على هيئة قرن، وينعطف مائلا نحو المدينة .. وفي المدى الممتد تبرز إسطنبول أوروبية على طبق كبير مثل كعكة، الميناء الطبيعي للعالم القديم، مركز القوات البحرية البيزنطية والعثمانية، ومرفأ سفن الشحن التجارية.

كنت أسير على غضارة العشب في المتنزهات الجذابة المخططة على الشواطئ، الشمس الرائعة التي تهبط أخاذة على الماء. أين فينير ..أين بالات..وسط هذه الأحياء المتاخمة للطريق المؤدية إلى القرن، الشوارع التي تتزاحم عليها البيوت الخشبية القديمة، الكنائس البيزنطية العظيمة، وتأريخ المعابد العثمانية، هناك في هذه البقعة التي تزورها الشمس يستقرّ النظام الأبوي القديم منذ فينير وأعلى القرن الذهبي حتى يصل إلى أيوب، كنت أشهد تبعثر الأحجار العثمانية المزخرفة أمام مقهى بيير لوتي، وفي أعلى التلّ الذي يشرف على الضريح وعلى القرن الذهبي، كنت أشهد المكان الرائع للتمتّع بهدوء المنظر، مشهد الهندسة المعمارية العثمانية، مشهد الحجاج المسلمين من جميع أنحاء العالم وهم يزورون يوب كامي وقبر أيوب، حاملين راية النبي.

هذا هو المكان المقدس في الإسلام، المقبرة الشعبية الهائلة الحجم، والتلال المحيطة بالمسجد منقّطة بشواهد القبور.

*

هبطت من حجرة الفندق إلى الصالة عبر السلم، كانت السيدة الصغيرة جالسة وحيدة على الأريكة، واضعةً ساقاً على ساق، تشرب كأس عصير، شاردة الذهن وتمسك سيجارة في يدها وتنفخ الدخان في



الفضاء، هازةً طرف حذائها الأنيق هزات خفيفة، اقتربت منها، فاستقبلتني مبتسمة:

- ما اسمك؟ قلت لها بالتركية.

- سعاد. قالت وهي تنتظر أن أقول لها شيئا آخر.

تلعثمت ..أخرجت كتاب تعلم التركية من جيبي وحاولت أن أعثر على كلمة مناسبة.

ضحكت وقالت بالإنكليزية، تكلم بالإنكليزية أنا أفهمها.

خرجت ..من الباب وأصبحت مباشرة في شارع جيهان..أمام كشك التلفون كنت أسمع "السلام عليكم..السلام عليكم.." الجملة الأثيرة التي تربط اسطنبول بالإسلام، توقفت عند المقهى وطلبت الشاي التركي بالاستكان..شربته وأنا واقف..بينما كان النادل ينظر نحوي ويبتسم دون أن يقول شيئا..

هذا المكان هو (سيميت سراي) جاء مرة أحد الشعراء في مغامرة جنونية، سكن أول الأمر في مدينة أسكشيخير بين أنقرة واسطنبول، عمل بائعا للصحف، صيادا للسمك، عاملا في معمل للسترات الجلدية، تسكع في أماكن الاصطياف، عمل دليلا للسواح، جرب كل شيء، الأسعار المضحكة الأجور القليلة، عاش في في الأحياء الفقيرة الوسخة، في الفنادق الرخيصة، نام مع العاهرات الريفيات، تسكع في الشوارع المضاءة المليئة بالناس، سار في الشوارع الخاوية والمعتمة... المبلغ الذي قبضه عن كتابه الأول سكر به مع عاهرة وفي الصباح قفز نحوه ثلاثة وأسقطوه أرضا، أخذ يقاوم، كانت معه محفظة وفيها الدولارات وجواز



سفره، ضربوه بأرجلهم ..فقد وعيه استفاق في الشارع المعتم ولم يجد المحفظة في جيبه، وكذلك لم يجد الحقيبة.

*

سرت في الشارع، تزاحمت مع الناس، ضحكت مع الفتيات الواقفات أمام الفرن، كلما أرى صبية جميلة أسألها السؤال المحير ذاته كيف أصل إلى جسر غالاطا.

تقف أمامي حائرة ..تحاول باللغة الإنكليزية وبالتركية وبالإشارات إفهامي كيف آخذ الطريق الصحيح بالمترو أو بالباص أو بالتاكسي.

-طيب أين البازار الكبير.

مرة أخرى..مرات..مرات.

أتملى بوجهك..بجمالك..كما أتملى بوجه اسطنبول الشابة الأبدية.

ستعودين أيتها الشابة مع الجيش العثماني القادم من اسبارطة، تعودين إلى سلاطينك، ودواوينك، وورقك، وجيوشك، وخيولك، تعودين من البحر إلى مشاغل وهموم كثيرة، تعودين إلى ما يعنيه آدم أودسن مكوسيه الشاعر البولوني الذي ولد في بيرا ومات في اسطنبول في القرن التاسع عشر. الشاعر الذي عاش في اسطنبول وكتب عنها في منفاه، وكتب عنها في الحرب وفي السلم، كتب عنها لأنها إناء السلاطين المصنوع من أجود الفضة، لأنها ماء هيراقليدس وهو يجري بين الأصابع الخمسة، لأنها صبية عارية وسط رياحين وزهور رقيقة ومساقط مياه، لأنها الإمبراطورة الشابة التي تعرضت في الحرب لطعنات سكين، لأنه أحب شعراءها، وفضول العلم في مساجدها مثلما كان فضول العلم في كنائسها قبل آلف عام، واسطنبول ليست بيوت الأثرياء في بيوك



أده فقط إنما هي بيوت الدعارة، والمواخير الشقية... وحين أقف في بايوغلو أسمع صوت فقراء اسطنبول وهو يحاصرني، بل تحاصرني ربة الخلافة وأنا أكتب عنها، ومشاهد الناس المزدحمين على كشك الهمبرغر يثير في المشاعر الصاخبة، ويحفز لدي الملاحظات الصارمة.

اسطنبول هذه الكلمة-السحر، الكلمة-المفتاح التي تثير خيالي نحو الناس، والديكورات المزخرفة والوقائع الغريبة المرمنسة، تثير خيالي نحو أحداث عظيمة تتفجر بين يدي كلما أقلب كتابا للتاريخ، تتفجر بين يدي صورها العارية البراقة، لأنها ممتعة وشهية مثل محظية في حرملك السلاطين.



-III-

شعراء تحت البازار الكبير

(تعلمت أشياء ما كان ينبغي أن أتعلمها أدركت أن الزمن محايد طرحت أسئلة ما كان ينبغي أن اطرحها قطعت كفنا من جلدي لقد منعت من تجاوز حدودي قلبي المسكين هو مقهاي الأكثر عزلة)

الشاعر التركي Mettiu Alhole

*

هناك..في اسطنبول، في بايوغلو، في شارع الاستقلال، الشارع التاريخي الذي يضم المكتبات والغاليريهات والمطاعم والسينمات والمقاهي والمسارح، كنت التقيت الشاعر التركي الشاب أحمد أورهان هو وصديقته الشاعرة البرازيلية باولا خانفيير قرب مكتبة صغيرة في الزقاق، ومثل تمثال لأحد السلاطين العثمانيين في سراي طوبقابي وقف الشاعر التركي أمامي بوجهه الحذر، وعينيه اللامعتين، وحركته المتباطئة. وهو يدخن بهدوء ويتحدث لي بصوت أجش عن أدباء تركيا: ناظم حكمت ذي النبرة السياسية المحتدمة.. عزيز نسين بسخريته الفلكلورية وعينيه الشبيهتين بعيني حزقيال ..أورهان باموق بذكائه



الضاري وهو يكتب عن الاختفاء الغامض للبسفور..أجا إيهان وخيالاته المستحيلة وهو يصرخ:

قلندر.. اسم سفينتنا التي تسابق الحيتان..

ونديم غورسيل الذي نام مرتعشا أمام إلياذته الجديدة، في تركيا العميقة، تركيا الجنوب..وأورهان ولي الذي بكى في قصيدته وقال:

لا تقتليني يا زوجة السائق..

كنا وقفنا هناك، بين ضجيج المارة الطموح، بين صخب الباعة الذي لا يمكن إسكاته، بين أمواج العطور المنبعثة من دكان ضخم للأزهار، نتحدث وننظر للعشاق الذين يمرون وهم يعيشون غبطتهم اللامحدودة، وتسلياتهم الغامضة في صيف اسطنبول الطويل، وعند الملاهي كانت الشبيبة التركية مثل الشبيبة الإسبارطية القديمة تضحك وتحيي على الأرصفة شبابها المتبطل، وقفنا هناك..في المدى الأوربي من المدينة التاريخية وقد غمرنا النور الفضي للبحيرات الراكدة بالكامل، وعند مدخل العمارة هجمت علينا ريح باردة ونقية كأنها مرت على الثلج وعبرت متاهة المرمر والحصى، ومن أعماق الشارع التاريخي كان الصفير الأجش والطقطقات القاسية للترام الصغير الذي شيده السلاطين في القرن التاسع عشر، يتقدم بثبات متحمس.

اتكأنا على حجر أبيض، صمتنا قليلا، ابتسمت صديقته ابتسامتها العذبة وقد تعلقت بذراعي، ثم انحدرنا إلى مقهى سرايِ المقابل لمكتبة رامز وجلسنا في الظل العميق والسميك عند الرصيف، وأخذنا نشرب قهوتنا بهدوء، فحدثتهم أنا عن الأدباء العرب: نجيب محفوظ الذي قرأه يشار كمال وسخر منه، عبد الوهاب البياتي الذي هرب من بغداد في



الخمسينات وعاش في شقة صغيرة قرب محطة تقسيم المزدحمة ليحيي أيامه الصاخبة مع نبيذ بورصا وناظم حكمت والنساء، وعن آدونيس الذي حقق شهرته العالمية في المتربولات الغربية وقد قرأه الأدباء الأتراك بترجمة سالم فندقجي...وعن أحمد هاشم الشاعر التركي الرمزي من أصل بغدادي والذي قطن في اسطنبول حتى مماته، بعد أن هرب من بغداد وسجن نفسه في حدود العالم التي ثبتها هيرودوت دون أن يتخلى عنها، وقبل أن يموت كتب مستاء عن الشحاذ البغدادي المجنون الذي كان يجلس على قارعة الطريق متربعا ويرطن باللغة الإمبريالية، وحين أصدر ديوانه "ساعة البحيرات" سخر ناظم حكمت من ذكائه المدهش بشكل لاذع، وسماه شاعر الضفادع..

تحدثنا طويلا ذلك اليوم عن حمى الشعر التي أصابت بعض السلاطين في ظل الظهيرة المصمت والمذيب، تحدثنا طويلا ذلك اليوم عن الشعراء الذين غادروا بلدانهم وقطنوا في اسطنبول وكانت طيور الغاق الضخمة تصرخ فوق رؤوسنا وتتأرجح على السطوح، تحدثنا طويلا ذلك اليوم عن اسطنبول الآسيوية والأوربية أمام الواجهات الزجاجية المزينة بالصفائح الثمينة والمنقوشة بإتقان، تحدثنا طويلا عن غرابة الشعراء والفنانين الذين سكنوا في تقسيم ولالي وعسمان بيه أمام الباحات المتروية والنور المبعثر والوحشية المترفة والزاهرة للحقب العثمانية الماضية، وقبل أن نفترق، أهداني هذا الشاعر التركي الغريب الأطوار أحد دواوينه المترجمة إلى الإنكليزية، وقررنا أن نلتقي في المساء مقترحا علي هو وصديقته نزهة على رصيف البسفور.



-IIV-

بون فوياج

عدت إلى الفندق عن طريق جيهان جادة سي، الشارع الصغير الذي يمتد بموازاة جادة الاستقلال في بابوغلو، ويفترق عنه إلى حافة فندق فيلا زويرخ حتى يصل رصيف البحر، كان الهواء البارد المحمل بالشذى والرذاذ يضرب وجهي، وكان المارة يتزاحمون على مطعم صغير يقدم الأكلات التركية المحلية بثمن رخيص، وعلى مقربة منه بار صغير ورخيص كان السرياليون يجلسون على مائدة قريبة من بابه، يجلسون هناك ويشتمون كل من يخالفهم الرأي، ويجلدون كل شاعر قديم من هاليدي أديب أديفار إلى أحمد هاشم، مررت وسط ضجيج الأصوات والضياء الساطع وتلامس الأيدي الخفيف وبحثت عن حسين مردان عند مروره باسطنبول وسط كؤوس الجعة والصحون المحطمة حيث ينهار المحيط بفرقعاته الجنونية وشعره المتصعلك، كان المكان يستعيد كامل حقوقه، ومحبرة الشعراء تغلق فوهتها بسدادة شمبانيا، كما قال الشاعر البولوني آدم هودسن مكوسيه الذي ولد في بيرا وتوفي في اسطنبول، ربما مر في هذا الطريق، وهو يكتب قصائده الغنائية والفنطازية، وربما



سكر هنا في هذا البار، هو وزمرة الصعاليك المنفيين، سكر وغسل يديه من ماء المراحيض.

*

مررت بالمطاعم الكبيرة التي تقدم أكلات بورصا ومرمريس، والتي وضعت كراسي الخيزران المنجدة على الأرصفة، مررت باستوديوهات التصوير التي ترفع إعلاناتها في المربعات الألمنيوم، مررت بدكاكين الحلاقين وقد علقت على واجهاتها آخر قصات الشعر في العالم، مررت بالغاليريهات الضخمة التي تعرض اللوحات الزيتية والمائية على جدرانها، وعند باب المسرح البلدي كان هنالك الفنان التركي الذي وقف ببذلته البنية وخوذته القماشية وقد تدلت حقيبة صغيرة سوداء من مقود دراجته، وأمام فندق فيلا زويرخ المطل على البحر وقف رجال الشرطة الطوال بملابسهم الزرق وصيحاتهم الأعجمية وأحذيتهم السود المسمرة التي تخبط الإسمنت، وفي نهاية الشارع كانت موسيقى الروك تنبعث من أحد الدكاكين الصغيرة حيث تجمهر الشباب والصبايا وهم يتمايلون ويرقصون، ومن رصيف البحر القريب من الشارع كانت عذوبة الرطوبة المالحة تأتينا ممتزجة مع الحر اللاهث، ونفير صفارات البواخر الهجين والوحشي.

في حجرتي المطلة على الشارع، تمددت قليلا على السرير بحيث كان يمكنني أن أنظر من الشرفة العريضة إلى اسطنبول، نظرت إلى الطيور البحرية الصاخبة التي وقفت على السطوح وقد أخذت جارتي التركية ترمي لها فتات الخبز، نظرت إلى البواخر التي تمخر الموج وتطلق صفاراتها الوحشية في الفضاء، ومن بعيد كنت أنظر جامع السلطان



أحمد وراء خليج البسفور بمآذنه الست ممحوا بضباب خفيف، وعلى مقربة منه في المدى الأزرق يلوح طوبقابي سراي وآيا صوفيا كلوحة انطباعية غمرتها الشمس بأشعة ذهبية تنتشر على قمتها مثل غبار، .. مددت يدي إلى الطاولة الصغيرة إلى جانبي وتناولت ديوان أحمد أورهان، وأخذت أقرأ قصائده القصيرة المترجمة للإنكليزية.

كان ديوانه بطبعته الأنيقة صغيرا، تزين غلافه الصقيل لوحة زيتية رسمتها فنانة أمريكية تقطن في أنقرة وليس في اسطنبول، وكان يحمل عنوانا غريبا أبعد ما يكون عن رؤى وحياة اسطنبول، هو "اللعبة الثانية"، ولكن ما أن أخذت أقرأ قصائده القصيرة الواحدة تلو الأخرى، حتى شعرت بأني أغرق في ليل تركيا الأسود الطويل، شعرت بأني أسبح وسط لغته التائهة الغامضة وأفكاره التترية الغريبة المليئة بالأسرار، كان هذا الشاعر التركي الغريب الأطوار يلتقط الأفكار الأكثر غرابة ووحشية ويمزجها بلهجته الشخصية وبلاغته المحتدمة والمنظمة، قرأت في الطابق السابع من فندق أنيق في اسطنبول شعرا محتدما عن حياة اسطنبول المبللة والتي تلتصق بالحياة التصاقا مثلما يلتصق الوسخ بالجلد، شعرا ذا نكهة تركية مخمرة منذ قرون، شعرا شهوانيا يعيد المشاهد الإكزوتية في أزيادة التي كتبها بيير لوتي في اسطنبول في بداية القرن الماضي إلى المشهد الحالي، غير أنه كان شعرا غامضا مثل شعر مولانا جلال الدين، شعرا قلقا ومنفصلا أيضا، أما مواضيعه فكانت هي العجائبية الآسوية المنمنمة التي يرويها بتعبير حاذق ومكتمل، وبأسلوب يجد طريقه السهل نحو التلاؤم السيئ مع العاطفة، وهو أمر ضروري دون شك للشعر الرمزي، وما يخفف هذا الافتتان الهدام بكل شيء هي هذه الحساسية



الطرية العصية على الوصف، وهذه الشعبية التي تذكر بقصائد أورهان ولي النثرية، والتي كان يطلقها في الثلاثينات من القرن الماضي على مشاهد اسطنبول الحية، مثل قصيدته التي كان يقول فيها:

(أنت حسناء في المرآة وحسناء أخرى في الفراش، تزيني وعاندي، وتعالي إلى دكان المهلبية عند انعقاد السوق).

*

في المساء التقينا مرة أخرى، وذكرته بقصائد أورهان ولي النثرية والتي نشرها مع أوقطاي رفعت ومليح جودت، هز رأسه برضا تام، وحدثني عن بيان أورهان ولي الشهير عن قصيدة النثر، وكيف كان يرى أن التناغم يجب أن يكون خارج الوزن والقافية، فقد كان يرى منذ ذلك الوقت بأن التناغم في النثر يأتي رغما عن الوزن القافية، ذلك لأن الوزن والقافية يشكلان تناغماً يخاطب الأحاسيس المتصحرة..وأطلق ضحكة خفيفة وهو يردد قصيدته:

(همّك الأسف على يومك، حل المساء، وغابت الشمس إذا لم تسكر فماذا ستفعل؟).

انطلقنا نحن الأربعة من تقسيم نحو شارع الاستقلال: جيهان، الرسامة القادمة من أزمير، الشاعر الغريب الذي يحمل كتبه في حقيبة صغيرة علقها على كتفه، صديقته الشاعرة البرازيلية التي تشبه لوحة انطباعية، و أنا.

في البدء قررنا أن نجلس في مقهى جيمس جويس، ثم غيرنا رأينا وسرنا مسرعين في الشارع الذي كان يضم الأتراك الساهمين والمقرفصين على كراس صغيرة بلا مساند، قالت جيهان:



"قبل قرن كان الشعراء الأتراك يجلسون هنا متلاصقين، وظهورهم متكئة على الجدران، والغلايين في أفواههم.."،

المقاهي المكسوة، الأرائك المنخفضة، المواقد الموضوعة، والتركي بأنفه المشروم يصنع القهوة في كنجات صغيرة من النحاس.

"استكلال جاده سي.." قال الشرطي الواقف أمام أحد السياح وهو يحمل خريطة لمدينة اسطنبول بيده، هذا الشارع الواسع الموازي لبولفار طرالباجي الذي ابتنى فيه الويسيو جريتي قصرا كبيرا بحدائق غابية حينما كان يحكم بيوغلو في القرن السادس عشر، هذا المكان التاريخي الذي منحت فيه السلطات العثمانية للأوربيين تراخيص بناء قنصلياتهم، فاشتهرت المحلة السلطانية القديمة منذ ذلك الحين بطرازها الأوربي، وعماراتها الحديثة، وأشجارها الضخمة التي تقي السياح من لفحة الشمس.

استقلال جاده سي..شارع المثقفين والفنانين القادمين من كل أنحاء العالم. قالت البائعة الشابة المثيرة والتي تعتني بخصلة صفراء مصبوغة متدلية على وجهها وتزيحها بغنج بيدها.

" هل رميتم بذور الحب للطيور في ساحة تقسيم؟". سألتني بابتسامة رقيقة وهي تناولني قدح العصير.

كنا توقفنا قليلا في ساحة تقسيم لنرمي البذور للطيور البنية المتجمعة هناك، ومن وسط الساحة الصغيرة كنا نتطلع عبر المشهد المقابل إلى مركز أتاتورك الثقافي، وفندق مرمرة الشهير ومحطة المترو..في هذه الساحة التي تتجمع فيها الطيور لتلقط الحب من أيدي السياح كان السلطان محمد قد شيد تقسيم المياه الذي يتشعب ليروي سكان مدينة اسطنبول أوائل القرن الثامن عشر، وبعد أن سرنا مسافة قصيرة، توقفنا



لنقطع تذاكر الترام القديم الذي يقطع شارع الاستقلال من بدايته إلى نهايته، قال لنا قاطع التذاكر المسن بطاقيته الصغيرة وبزته الخاصة بعمال السكك، بأنه يعمل في هذا المكان منذ نصف قرن تقريبا. ضحك بشواربه الحليبية البيض وودعنا بفرنسية جميلة:

"بون فوياج".

انطلق الترامواي التاريخي الذي يمتد عمره إلى أكثر من قرن في شارع الاستقلال، وهو يدق بجرسه لينذر العابرين.

على اليمين كانت القنصلية الفرنسية ببوابتها الكبيرة، وبنائها المميز، وقد تجمع الشباب على دكاتها المرمرية الكبيرة وهم يحملون روايات فريدناند سيلين ودواوين هنري ميشو، إلى جانبها الكنيسة الكاثوليكية القديمة وقد خرج السياح من بابها الجانبي، وعلى كلا الجانبين هنالك الدكاكين الكبيرة بالواجهات الزجاجية، المطاعم التي تقدم المشاوي التركية للزبائن، السينمات التي تعرض لوحاتها صور المطرب الشعبي إبراهيم تاتلس، البارات المعتمة الهادئة، الممرات الصغيرة التي تتفرع من الاستقلال جاده سي والتي تصل بولفار طارالباجي، مثل "سيسيك باساجي " المشيد على طراز الركوكو في العام ١٨٧٦، والذي يضم المطاعم الكبيرة، سوق السمك، الدكاكين الصغيرة التي تبيع التحفيات والكتب المستعملة، وعلى اليمين بنايات السفارات الأوربية، وفي نهاية الشارع غالاطا ساري، هايشول المشهور، البنك التركي، مسجد بايوغلو، والنساء الجميلات بالملابس المختصرة اللواتي يتسكعن حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي كل زاوية من هذا الشارع فنانون يأكلون الوجبات الخفيفة ويشربون البيرة، عازف غيتار يعزف ويغني بصوت عذب وعلى مقربة منه يرقص عاشقان.



-٧-

سراي العالم القديم

(كم سنة مرت؟ كم سنة مضت لم أنظر فيها إلى بحرك؟ ولم أرَ فيها أناسك، ولم أمش في أزقتك وشوارعك، ولم أعبر فيها ساحاتك؟ والآن في زقاق فيغور في باريس، بعيداً عنك أنا معك.

قبل قليل رأيت في المترو ملصقاً شرُعت فيه آياصوفيا بملاتكتِها أجنحتها للريح، أشرعت للريح أجنحتها تلك القبة التي يقال إن طينها مجبول ببصاق حضرة محمد. وفي ملصق آخر مياهك صافية رقراقة).

نديم غورسيل

حبيبتي اسطنبول

*

سألتني إحدى البائعات فيما إذا كنت رأيت سراي بيلربيي المطل على الساحل الآسيوي من البوسفور الذي تم انشاؤه في القرن التاسع عشر من قبل السلطان عبد العزيز لاتخاذه مصيفا والذي يعكس الميول والأذواق المختلفة ببياض وخاصة في وسط الحديقة المليئة بالمانوليا (المنغوليا ؟

*



كنا جالسين في سميت سراي نأكل الكعكة ونشرب الشاي، كانت رواية نديم غورسيل "صيف طويل في اسطنبول" بترجمتها الفرنسية على الطاولة، وإلى جانبها روايات أخرى، كلها تتحدث عن اسطنبول، أو تدور أحداثها في اسطنبول، ومثلما كان أحمد راسم يصف مقهى ياكومي القديم في ليلة من ليالي رمضان، حيث كان صبي المقهى يرتدي طربوشا أحمر وجاكتا بثنيات خضر وينزلق على حزامه الأخضر الفاقع خنجر، كان السياح يبحثون في المكان عن مقهى أيوب، أو المقهى الذي جلس به يوما بيير لوتي وسمع موسيقى الماندولين، أو يبحثون عن مقهى السيرافيم الواقعة في بايزيد بالقرب من البازار القديم قرب صالون الحلاق، حيث كان الأدباء الأتراك يقضون جل وقتهم هناك: نامق كمال، عزيز بك، أوبو زيا توفيق، فنديلو توفيق باشا، وفي مستهل هذا القرن التقى الشاعر عبد الحليم ممدوح بهاليت زيا وهو كاتب دخل إلى المقهى للمرة الأولى، ومثل شاعر رومانتيكي قد سرح شعره الأسود بأصابعه وشرب القهوة هناك.

المدن لا تكون كبيرة بشوارعها إنما بتماثيل الشعراء الذين سكنوا بها..

رددت باولا خانفيير ما قاله ناظم حكمت قبل عقود.

نديم جورسيل الذي جاء من جازيا نثيب، من الجنوب، وعاش في اسطنبول، رواياته مصفوفة في المكتبة: صيف اسطنبول الطويل، الترومواي الأخير، قصة الفاتح، الدرويش والمدينة، وكلها بالتركية، وعلى مقربة منها بعض الروايات المترجمة إلى اللغات الأوربية، قلت للبائعة الشابة في مكتبة شكسبير، بأني قرأت بعض روايته بالعربية، وبعضها قرأتها بالفرنسية.



أذهلتني فيها سرابات الجنوب، مشاعر الحنين إلى تركيا العميقة، تركيا الجنوب، أو تركيا الحقيقية. عدة ارتحال البدو، سراب القبائل الآسيوية التي نزلت من تلالها كي تصل ضفاف البحر، الروح المزدوجة للترحال.

هذه إلياذته الجديدة مكتوبة بنغمة مأساوية، نغمة صادرة من قلب تركيا الممزق بين آسيا وأوربا، نغمة مأساوية صادرة من جغرافيا لا توجد إلا في الأطالس، أو من جغرافيا المكان الذي لم يعد قائما، من جغرافيا الذكرى والسراب، إنها رحلة حقيقية لاسطنبول، رحلة شعرية لاسطنبول التي تترك في الأعماق ملح البحر، قونيا هناك، قرقرات الطناجر وقبر مولانا جلال الدين، في القرن الذي شهد انحطاط قوة السلاجقة، حيث التقى مولانا جلال الدين بشمس تبريز درويش المتصوفة المعروف، القبائل التي لم تتخل أبداً عن حياة الترحال في منطقة جبال طوروس حيث أمضى يشار كمال طفولته هناك.

من جازا نثيب جاء نديم غورسيل إلى اسطنبول، جاء إلى بايوغلو .. الهندسة المعمارية الأوروبية منذ قرن تقريبا، نفق أوروبا العظيم، التانيل الذي شيده الفرنسيون في العام ١٨٧٥، غالاتا وبرجها الكبير، الحياة المرفهة الحضرية في الشارع، مكتبات، سينمات، أسواق، المحلات التي تبيع الحلي الزائفة الرخيصة، وجبة السميت بالشاي أو وجبة الخبز بالسمسم، الشارع المكتظ بالنساء، العودة بالترام الأحمر، المرور من السفارات، غالاتاساراي، البيئة الملوّنة لباليك بازاري (سوق السمك) حيث أكل هناك لورنس دارل طبق العصيد، ومطاعم سيسيك باساجي أو (مرور الزهرة) حيث كان نيكوس كازانتزاكي يصادق النشالين. شارع



الكنيسة القديم حيث سار أبطال غورسيل هناك وهم يحملون أكياسهم، درابيريس ست ماري التي تعود إلى العام ١٧٨٩ حيث مرت النساء المسيحيات وعبرن الباحة، الكنيسة الفرانسيسكانية سنت أنتوين التي تهدمت وأعيد بناؤها في العام ١٩١٣، لقد مر الشعراء في ساحة تاكسيم..مر توفيل غوتييه من الميدان التركي الكبير ..جلس السرياليون في الساحة الضخمة المفتوحة على الآفاق، حيث تتجمع فيها الطيور والفقراء والسياح، صعد هنري ميشو من كراج اسطنبول الحديثة والمزدحمة أبدا بالعابرين وذهب إلى بورصا، توقفنا نحن في الساحة الكبيرة المتوّجة بنصب أتاتورك العظيم، ذهبنا إلى المحطة الطرفية الرئيسية للنفق الجديد، أكلنا في كراج الحافلات الصاخب الذرة المملحة وشربنا الشاي، ذهبنا إلى مسرح اسطنبول وضحكنا عندما احتك الصحفي الكردي بمؤخرة الممثلة الشابة، أخذنا صورا كثيرة في المتحف العسكري مع الشرطة المهذبين والذين لا يحملون المسدسات ولا العصي الغليظة، بقينا في مركز حياة الليل حتى آخرة الليل، سكرنا في الحانات..رقصنا مع العاهرات في النايت كلاب، وحين سقطنا على الرصيف أخذت لنا باولا خانفيير صورة تذكارية كشاهد على عشاق الفنون البوهيمية.

وها هي رواية نديم جورسيل صيف اسطنبول الطويل أمامي.

قلت لأحمد أورهان أنا أعد هذه الرواية دليلا سياحيا لاسطنبول.

كنت أبحث فيها ذلك اليوم عن الوصف الماكر لبازارات المدينة مثل البازار الكبير، بازار التوابل، بايزيد، سركجي، أسواق الأكسراي، البازارات هي العنصر الطاغي الذي لا يمكن مقاومته، لا لأن رؤية



اسطنبول رؤية كلية هي هدف لم يستنفد بعد، إنما لأن أحداث الرواية الغريبة المدهشة تتحرك على إيقاع وصف مذهل يمسح المدينة مسحا كاسحا... هناك الأسواق التي أحبها: سوق قابلي كارسي أو البازار المسقوف، متاهة الدكاكين في الممرات القديمة، ممرات وشوارع صاغة الذهب، شارع باعة السجاد، شارع صنّاع الطاقيات. المركز التجاري للمدينة القديمة، السوق المسقف، سوق الحرف التركية: السجاد المشهور، والسيراميك المرسوم باليد، والسلع النحاسية، النراجيل والغلايين التذكارات والهدايا الساحرة. كنا نسير في الشوارع حيث تضيء المجوهرات الذهبية وجوهنا، هناك الملابس الجلدية المدبوغة، تحف بيدستن القديمة، كنا نبحث فيها كما لو كنا نبحث في فوضى التاريخ عن كنز... نسير في سوق التوابل وراء مسجد آمينونو، خيال الشرق الصوفي القديم ينهض على روائح القرفة، والكراويا، والزعفران، والنعناع، والزعتر.

قلت له وأنا أشير إلى رواية غورسيل: كل شيء في هذه الرواية يتحرك حركة قلقة مهتزة، أما ذات السارد المخيبة والواهمة فقد كانت حاضرة حضورا كليا.

قلت لأحمد أورهان: إن قدرة غورسيل على التحكم بموضوعه أسرتني بشكل كامل، لم أكن قادرا على الصمود أمام هذا المخزون الثري في اللغة، وهذا التجرد العظمي الذي يجعل اسطنبول حارة ومشبوبة، إلا أن أحمد أورهان كان له رأي مخالف تماما، لم يقل لي أنه له رأي آخر بلهجة لم تكن متعاطفة مع غورسيل حسب إنما بلهجة متحمسة لرواية اسطنبول لأورهان باموق أيضا.



-VI-

اسطنبول باموق

اسطنبول باموق شيء آخر، هي تاريخ الإمبراطورية الذي يجري ساخنا إزاء الانزياحات الكبرى والتي تعصف بالمدينة عصفا، إن كل مكان في اسطنبول يتم إخضاعه في رواية باموق بصورة ضارية للتعبيرات التاريخية المحتدمة، كل مكان في اسطنبول يبرز لاذعا، جامحا، ملفعا، قدريا، وإمبراطوريا أيضا، وينظم باموق بلهجته المتوازنة الصورة الصامتة لاسطنبول والشراهة اللاأخلاقية التي لا يكبح جماحها كابح.

نصوص باموق خليط من فلسفة فانتازية قديمة وروح بورخيسة حديثة، نصوص باموق ساحرة بلغتها الهذيانية، بلغتها الضبابية المهجّنة، وهي مزيج مدوخ بين العقلانية الأوربية وهلوسة التصوف الإسلامي، لغةُ باموق ساحرة لأنها متاهة من الاستعارات، والتعرّجات، والمجازات، والإليغوريات التي تقود إلى متاهة أخرى، وهي معقدة لأن التاريخ التركي معقد ومتشابك أيضا، ولا يمكننا أن ندرك هذا التاريخ عبر التكهن والابتكار. بل نشعر بأنفسنا ونحن نتورط معه على الدوام في صناعة حكاياته، والتحول معه من مكان إلى مكان، نبحث معه عن



معانيها ومفرداتها وأماكنها، وأشيائها، كل شيء في روايات باموق خاضع إلى المعنى الذي ينكتب للتو، كل شيء خاضع للأسلوب المغناطيسي المربك، للأسلوب الذي يتحدى قناعاتنا، كل شيء يحرضنا كما يحرض الأبطال على البحث عن هوياتهم وحقيقتهم، كل شيء يحرضنا على طرح الأسئلة حول ثنائيات الشرق والغرب، حول المركز والهامش، حول التشاكل والتنوع، حول التشابه والاختلاف، حول الواقع والخيال، حول الدلالة وما يناقضها، حول الالتباس والعبث واليقين، حول الأسس الحقيقية التي تصوغ كياننا وشخصيتنا وخصوصيتنا.

اسمي أحمر .. هي النزعة الطامحة لمراجعة كل ما يتعلق بالصراع بين المنظومتين العلمانية والدينية المتشددة، لا يمكن لأحد الخروج من تأريخه، لا يمكن لأحد أن يتخلص من صدمة الحداثة، باموق يعيد تفكيك الواقع ويعيد تشكيله على ضوء ما توفر لديه من تاريخ قديم لجودت بك وأولاده، باموق يتحرك بسرعة كبيرة ولا يتوقف إلا عند جماليات الفن الإسلامي والمؤثرات الثقافية الغربية المدمرة، قلت لهم:

"أنا أحب روايات باموق.." رغم محاكتها الماضي البعيد و احتوائها على زمن لم يعد فاعلاً في الحقيقة.

ها هو باموق أمامي.. احمر وجهه حين رددت عليه الاتهام الذي وجهه له أمين كولسان الصحفي في صحيفة حريت، وأحمد تانير كسلالي بأنه يهاجم المؤسسة الأتاتوركية السياسية.

نحن أيضا تعصف بنا نحن أيضا أزمة الهوية قلت له وأنا أشرب الشاي في مكتبه..في اسطنبول يمكنك أن تتحرك على الخلفية التي تتحرك بها رواية جودت بيك، الملحمة العائلية التي يدور موضوعها حول



حياة إحدى العائلات البرجوازية في مدينة اسطنبول المكان الذي يصفه باموق بانعدام التناسق وانعدام العلاقات الهندسية.

كنت عرفت اسم باموق أول مرة من تعليق فريدريك جيمسون على «الكتاب الاسود » و«الحياة الجديدة » اللتين عدهما جيمسون الأقرب إلى الأعمال الروائية ذات الرموز الوطنية السياسية لاعتبارات تتعلق بمنظوريهما السياسي العام الذي يشرح من خلالهما المؤلف إشكالية الحياة في المجتمع التركي المعاصر ومع ذلك فإن هاتين الروايتين تنتميان فيما يتعلق بالشكل والتقنية السريعة إلى روايات ما بعد الحداثة الغربية.

هذه هي مناورة باموق في سياق الرواية التركية، الحكاية الشهرزادية التي تدور حول حياة عالم إيطالي شاب من القرن السابع عشر يخرج في رحلة بحرية من البندقية إلى نابولي فيقع في قبضة القراصنة العثمانيين، ويسوقونه إلى اسطنبول، ويبيعونه، فيشتريه عالم تركي، ويعامله معاملة حسنة خاصة بعد اكتشافه انه يمكن الاستفادة من خبرته وسعة اطلاعه، وفي تلك الأثناء التي يشعر فيها الخوجا بنوع من الانسجام الروحي مع عبده الإيطالي الذي يكشف له الكثير من أسرار التقدم التكنولوجي والعلمي الغربي من الطب إلى الألعاب النارية حتى يطمح السيد في تقمص شخصية عبده الأوروبي، وهكذا تنتهي الحبكة الشهرزادية بأخرى يتحول فيها القارئ إلى مستطلع لنمط الحياة الاجتماعية والسياسية في بلاط السلطان العثماني ويعرف المزيد من أسرار القصر وممارساته غير الحضارية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمعاملة السلطان لسجينيه العالم التركي والشاب الغربي اللذين يسخرهما من



اجل مصلحته ويحملهما على الاجتهاد في تصميم سلاح حربي يفشلان في صنعه رغم سعة اطلاعهما وعلمهما، والواقع أن هذه الرواية القصيرة تلخص في موضوعها أزمة العلمانية التركية التاريخية ومرحلة التجديد وتداعياتها الباعثة حتى على السخرية وان كانت من الطراز الغربي.

يقدم لنا باموق في اسمي أحمر حكاية داخل حكاية. فهنالك ثلاث حكايات تشكل رواية فكرية مليئة بالأسئلة التي تطرحها مجموعة من الفنانين والشعراء الذين يلتقون في أحد المقاهي في القرن السادس عشر ليحاكموا العصر، إنه النظر نحو الثقافة الشرقية الجامدة بالتناظر مع الثقافة الغربية المتحركة، وهي المعادلة الواقعية في الحياة السياسية والاجتماعية، وفي المستوى الثاني تنشغل الرواية بحل لغز جريمة خفية تطرح التساؤل حول هوية قاتل بطلها الفنان «اليجانت» الذي يقوم بتأجيره متعهد فني بناء على وصية السلطان العثماني، وفي المستوى الثالث فهي رواية حب، رواية حب رقيقة تنشأ بين بلاك وشكور.



-VII-

تجوال الملائكة قرب غالاطا

(وجهك الطرقات التي تنحدر نحو البحر
ملتقيات الطرق عدادات المياه وجهك
حينما انحني على وجهك أنا
وجهك الأسواق فاتحة مبكرة
أنت أيها النيلوفر بلا وزن ولا قافية)

الشاعر التركي إلهان برك Ilhan Berk

*

ذهبنا إلى مكتبة رامز قوتابفي أنا وأحمد أورهان وصديقته الشاعرة البرازيلية باولا خانفيير، والتي كانت أشبه بلوحة انطباعية بملابسها المختصرة وألوانها الباستيلية: قميص وردي، بنطلون أصفر، وحقيبة قرمزية، في الطريق اصطدمنا بسياح تائهين، بسابلة مرتبكين، بمثقفين وموسيقيين ورسامين من كل أنحاء العالم، وقفنا عند تجمع كبير يحيي حفلا موسيقيا صاخبا على الهواء الطلق. كنت أستعيد تعبير الحياة مع كلمات فنسان موزلي الكلاسيكية، حياة ملتهبة، ثقافة لا ينقصها مفاجئة أو طارئ ، فقد تعرفنا هناك على الروائية الإيرانية معصومة



اصفي وصديقها البلجيكي أندريه باري، وذهبنا مع شاعر ياباني شاب في رحلة بالباخرة من سركجي إلى جزيرة بيوك آده، سرنا في تقسيم، الميدان الحيوي لاصطنبول حيث كان يقطن الشاعر عبد الوهاب البياتي في الستينات، شربنا الشاي تحت الشقة التي كان يقطنها هنري ميلر بعد الحرب العالمية الثانية، سرنا في الطريق الذي سار فيه لورنس داريل، وشعرنا ذلك اليوم أن تجربة الثقافة هي تجربة الآخرين وقد أصبحت تجربتنا.

جلسنا في مقهى بيير لوتي، نظرت معصومة في فنجان قهوتها باستغراق كامل، نظرت إلى اللوحات التي تزين المقهى بشكل زائف بإتقان، وتحدثت لنا عن معرفتها بالفنون التشكيلية، لم يكن أحد مهتما بما تقول سواي، غير أن نظراتي كانت تبتعد رغما عني وتصل إلى امرأة في الخمسين، بدينة، مسترجلة، تتحدث بشكل صاخب مع أحد الجالسين أمامها.

تتنقل جيهان بيننا مثل فراشة.

تحمل على ذراعها سلة أزهار، تتخيلنا في عتمة باردة في طرف بعيد، تفكر بنا كماض لها، كما نحن نفكر باسطنبول كماض لنا، ننظر من الزجاج إلى الخارج المشمس وقد برزت لوحة المحل التي أمامنا مكتوبة باللون الذهبي الداكن، حمامات يلقطن الحب وأقدامهن الرصاصية بلون أقلام الرصاص، رجل يركض خلف امرأة يتوسل بها وهي تسير بخجل متوقع ولا ترد، سيارات التاكسي الصفر عند الرصيف المقابل، زحمة صغيرة هناك، سائحات روسيات يقفن مع أحد المارة يتلفتن بشعورهن المصبوغة بلون كنار أصفر، وواحدة ترتدي القميص دون ستيان



وشعرها مصبوغ بلون اليود ، كل شيء يبتهج الآن في بايزيد رغما عني، يصخب رغم هدوئنا المفتعل، جيهان منفعلة رغما عنها ، أحمد أورهان منشغل بالإيرانية وهو ينظر إلى عينيها الشهويتين السكسيتين، كنت أشعر بفراغ مدهش، كنت أريد احتفالا وأغان مصلصلة، وصداحا غريبا في هذه اللحظة من يوليو ، أبحث عن ريشة مثل دخان تلون هذا المكان، أو أنام مع جيهان في السرير حتى منتصف الليل.

*

سرنا في المساء عند مضيق البسفور الذي يفصل ويصل أوربا عن آسيا ، كنت ألمس الطراوة المالحة وهي تثقل بثبات خالد وأبدي المراكب المضاءة بالمصابيح، أرى دخانا أزرق يصعد من فوق القلاع العثمانية في الهواء المذهب لأول الصيف، وأصغي لصراخ طيور البحر الخشن وهو يصعد مثل التشقق الوحشي لهدير البواخر ، أشعلت الشاعرة البرازيلية سيجارتها ، وبنظرة شبه مغمضة سألتني عن الأدب العربي، تحدثت لها قليلا.. وقبل أن أكمل تحدثت لي عن الأدب الفارسي..

جلسنا حتى آخر الليل على الرصيف، تعشينا في مطعم صغير قرب المسرح البلدي، وعلى مقربة منا كان الفقراء والمعدمون يجلسون على الأرصفة في الساحات العامة، وكان الحراس يقفون عند مداخل العمارات، وقرب المخيم الكبير الذي أقيم في الاحتفال بذكرى نصر الدين خوجا كانت الراقصة الجميلة ذات الصدر المرتفع تدور بدلال أمام التخت الموسيقي التركي، رقصت بخفة متناهية وبإيحاء كامل متمايلة، متثنية في حين تهدلت خصلات شعرها الشقراء على جبينها الأبيض. كنا نحدق بها ، بينما كان الجمع يحدق بنا ، يحدق بمجموعة من الأدباء



الشباب الذين جاءوا من كل مكان تقريبا، جاءوا من تركيا ومن العراق ومن إيران ومن البرازيل، وقد شغلتهم سحناتنا الغريبة عن رؤية اللحم العسلي الجميل الذي يتثنى على أنغام الموسيقى.

ليل اسطنبول الساخن.. ليل صيفها الطويل، وعلى مقربة من أكشاك البحر سرنا على الأقدام نحو شقة كائنة في الضاحية القريبة من شارع أيوب، ذهبنا لشاعرة أمريكية تقطن اسطنبول من عام تقريبا، أصدقاؤها يمزحون حين تسألهم عنها، قطنت هناك لتكتب كتابا تاريخيا عن محظيات السلطان، صعدنا درجات السلم القليلة، طرقنا الباب، خرجنا لنا شخص آخر، أدركنا أننا أخطأنا في العنوان، اعتذرنا وهبطنا السلم، سرنا في الشارع ونحن نضحك من الخجل، لمدة نصف ساعة تقريبا ونحن نبحث عن الشارع دون جدوى. ربما غيرت عنوان شقتها .. ربما أخذت عالما الصغير وهربت.. وجدناها.. دخلنا عالمها الصغير، شقتها الخشبية المتواضعة، كتبها، ملابسها، وصديقها الصحفي التركي الذي ينام في شقتها، شابة.. جميلة، شبه مجنونة، مهووسة بالأشياء التاريخية، بالكتب القديمة، بالبخور، غرفة بائسة واحدة.. لا مكان نجلس فيه.. جلسنا على الأرض.. أمامنا مطبخ صغير، وشرفة تطل على شارع ضيق، كتب ومجلات تركية وإنجليزية مكومة وقد علاها الغبار، خبز، قشور بيض مسلوق، فاكهة ناضجة، ملابسها خفيفة يظهر جسدها البض من خلالها، دون ستيان، دون كالسون، تدخن طول الوقت وتتكلم كثيرا.

*

كنا التقينا ذلك اليوم بالروائي التركي أورهان باموق، التقينا به في ساعة متأخرة من الليل، تجمعنا نحن الخمسة على كومة من الصيد



المذهب، الوجبة المسائية، المودة الصاخبة وهي تذوب في هذا الكلام الملتهب، الثقافة في الحس الخالد والأبدي الذي يجمعنا، إنه المظهر الهادئ المضيء، الحياة الغافية في النظرة المترنحة، أستند بمرفقي على ركن من أسوار سراي طوبقابي وأنظر إلى باقة زهر في انبساطها الممدد، غبطة الثقافة في تلمس حس لا يضارع، غبطة الثقافة في رواح الطيور وغدوها النادر، في صلصلة عجلات السيارات، في الضجيج المنفرد الذي تحدثه الأقدام، في صوت الموسيقى التي تتصاعد بعذوبة مع صوت باموق وهو يصف الفعاليات القروية الساذجة والنداء القلق في شوارع مدينة اصطنبول.

هذه نهاية مراسيم المساء: أصوات تتثاقل بهدوء، عنقود هزيل ينفرط حبة بعد أخرى، وأنا ألمس بيدي هذه الأحجار الثقيلة المصمتة، تائه في منفاي ومنهمك في الترهات الذهبية التي لا تنتهي.



-VIII-
السياح

(الرحيل إلى مكانك يا اسطنبول
تتحركين أنت ونحن نضحك)
الشاعرة التركية أولاي حكمت

*

ان التنوع الموجود في اسطنبول يبهر السواح: متاحف، كنائس، قصور، جوامع كبيرة، أسواق، وجمال الطبيعة الذي لا ينتهي.

قالت لي حكمت: "لو اتكأت على أريكتك واطلعت على انعكاسات ألوان غروب الشمس التي تنعكس على شبابيك البيوت المطلة على الساحل لأدركت لماذا اختار هؤلاء الناس ومنذ مئات السنين هذا المكان الخارق في الجمال".

كانت محققة بطبيعة الأمر كل شيء ساحر وخلاب ورائع على نحو غير معقول: فنادق حديثة، مطاعم ونوادي ليلية، وكباريهات وأسواق تاريخية، ودكاكين.

مشينا ذلك اليوم في متاهات وأزقة سراى طوبقابي الواقعة في مركز الامبراطورية العثمانية ما بين القرن الخامس عشر و التاسع عشر،



مشينا في هذه البقعة التي تقع في منطقة التقاء مياه البسفور والخليج وبحر مرمرة، قال أحمد أورهان:"لقد عاش السلطان وحريمه ووزراؤه هنا.."وأشار بأصبعه إليالبناء الحجري العالي، ثم تحركنا إلى سراي دولمة باجة المبنية من قبل السلطان عبد المجيد الأول في القرن التاسع عشر، هناك على الساحل الأوروبي من البوسفور، وحين دخلنا الصالون بأعمدته الـ ٥٦ الكبيرة والمنورة بالثريا الكريستال الضخمة بمصابيحها البالغة ٧٥٠ مصباحا، ووزنها البالغ ٤.٥ طن اندهشنا.. كان شيئا لا يصدق... شيء غير معقول حقا هذا الترف.. والفساد الثري، والعبقرية الثقيلة الخطى على أجساد ضحاياها، ولكن ما هي النفس البشرية وهي تملك وتسود، وهكذا افترقنا من أول نظرة، فبعضنا قال: يا للضخامة .. والبعض قال: يا للفن..وآخرون قالوا: يا للسلطة..أما الضحايا فقالوا: يا للعبودية.

*

رددت جيهان جملة لورنس داريل القديمة حينما زار اسطنبول:

" الحياة لا تستقيم في اسطنبول دون نزهة المركب على البسفور"

كانت المراكب تشق المضيق المتعرّج الذي يفصل أوروبا عن آسيا، وكانت الشواطئ تعرض خليطا مبهجا من العظمة الكبيرة والقديمة، لقد أخرسنا هذا الجمال العذب والبسيط، هذا الجمال البري الذي يندفع من الوهج الأحمر الباهر والبحر الذي يلهث على الرمل ويسير ببطء نحو الصخور، ومن الضفة الأخرى تبرز الفنادق الحديثة قرب يالي، وتحجب فيلات الشاطئ الأمامية ذات الواجهات الخشبية، والقصور الرخامية التي تتاخم قلاع الحجارة الريفية، وفي المدى الأزرق الممتد تعبر المراكّب الرائعة لقرى صيد السمك الصغيرة.

*



صعدنا نحن الأربعة الباخرة من محطة سيركجي على البسفور، في الممر الضيق. في الطريق تعرفنا على صحفية تركية ترتدي ملابس فاضحة وتتدلى كامرة صغيرة على صدرها، كان برفقتها شاب يعمل في صحيفة من صحف الجنوب، أخرج سيجارة مطفئة من جيبه وأشعلها، عرجت الباخرة إيما نونو بانتظام على طول الشواطئ، وتوقّفت بالتناوب على الجوانب الآسيوية والأوروبية للمضيق. حلقت النوارس خلف المركب حين تجاوزنا قصر دولما باجا الرائع وانحدرنا قليلا نحو الرصيف. نهضت سائحة أمريكية لتحيي هذا الجمال الرائع على الطريقة الأمريكية خلعت كالسونها وأخذت تلوح به.

مررنا على المتنزهات الخضر، على السرادقات الإمبراطورية من قصر يلدز، وعلى حافة قصر سيراغان الذي جدده السلطان عبد العزيز وقد تحول اليوم إلى فندق كبير، مررنا على الواجهات الرخامية المزخرفة والتي تعكس الماء الشفاف، توقفنا في الأورتاكوي، جمع من الفنانين والفنانات يعرضون لوحاتهم على جانبي الشارع، في ذلك الوقت وعند الوصول ذهب الصحفي التركي الشاب لمرافقة الأميركية التي خلعت كالسونها وانطلقا في مغامرة على ضفة البسفور، بينما عادت صديقته وهي تحمل حقيبتها وتبحث عنه بين الوجوه...وحين يئست من العثور عليه صعدت معنا في المركب ورافقتنا حتى عودتنا ..غير أنها فارقتنا عند وصولنا جامع السلطان أحمد ذي المنارات الست والذي يقع مقابل آيا صوفيا...(هذا الجامع الذي تم انشاؤه من قبل معمار القصر السلطاني محمد آغا ما بين ١٦٠٩-١٦١٦ يسمى أيضاً بالجامع الأزرق، ماوي جامع بسبب الألوان التي تغطيه، وبسبب البلاط



والقيشاني الأزرق والأبيض والتي جلبت من ازنيك كنيسة آيا صوفيا التي تم إنشاؤها من قبل قسطنطين الكبير وتم تجديد المبنى في القرن السادس من قبل جوستنيان.



-IX-

أغاثا كريستي

اسطنبول دوقة الموت وأسرار الكتابة

أصبحت أغاثا كريستي دوقة الموت بحق بعد أن كتبت أكثر من مائة رواية وقصة قصيرة ومسرحية تبحث فيها عن سر الموت ولغز الجريمة، وقد بيع من كتبها أكثر من مليارى نسخة في العالم حتى غدت الأكثر شهرة وذيوعا من أعمال أي كاتب آخر، بل بيع من كتبها في عام واحد أكثر مما بيع من كتب شكسبير بثلاثين مرة، ولم تكن بارعة في كتابة الروايات البوليسية حسب، إنما تربيتها في فرنسا وحياتها الباريسية المرفهة قبل عودتها إلى لندن جعلت منها عازفة بيانو ماهرة، ومطربة أوبرا ذات صوت لا يضارع، ولو لا خجلها وحياؤها لأصبحت صاحبة أفضل صوت سوبرانو في العالم، كما كانت خارقة الجمال في شبابها، شقراء، ولها عينان زرقاوان بسحنة اسكندنافية وسيماء محببة، وهي الصورة المختلفة كليا عن صورتها التي اشتهرت بها فيما بعد، العجوز ذات النظارة السميكة والشعر المهوش، والأنف الطويل.

تزوجت أغاثا أول الأمر من ضابط في الطيران الملكي الإنكليزي آرتشيبالد كريستي الذي حملت لقبه، وتطلقت منه فيما بعد، ثم تزوجت



ماكس مالوان عالم الآثار الشهير الذي اصطحبها إلى بغداد في الخمسينات حينما عمل في العراق مع العالم الآثاري البريطاني المعروف كامبل تومبسون (مؤلف معجم النبات الآشوري)، واشتهرت تنقيبات مالوان في الموصل وفي الخابور، وتشاغار بازار (القامشلي)، وتل براك، ووادي البالخ، ثم في نمرود، حيث اكتشف قلعة شلمانصر، كما أنه مكتشف التمثال البرونزي الشهير لرأس الملك الأكدي الشهير سارغونفاكتشف.

في بغداد، في أواخر الأربعينيات، قطنت أغاثا وزوجها مالوان في حي الوزيرية، وقد تعرف عليها جبرا إبراهيم جبرا في سينما روكسي بعد خروجهما من الفيلم هي وزوجها، ولم يكن يعرف بأنها أغاثا كريستي كاتبة الروايات البوليسية التي كانت ذائعة الصيت أوانذاك، إنما تعرف على زوجها عالم الآثار الشهير، وقد دعاه كلاهما إلى منزلهما لتناول الشاي والكعك البغدادي، وقد ذهب عندهما أكثر من مرة على مدى أكثر من أسبوعين ولم يكن يعرف أنها كريستي الشهيرة، بل كان يراها امرأة عادية في غاية البساطة تقدم لزوجها ولضيفه الكعك والشاي وتجلس على مقربة منهما تحيك لزوجها بلوزة من الصوف لتقيه البرد حين يذهب إلى الصحراء منقبا عن الآثار، وفي يوم ورد أسمها عرضا فضحكت وقالت لجبرا أنها كريستي كاتبة الروايات البوليسية وقد تصور أنها مزحة إلى أن أكد له ديزموند ستيوارت الكاتب الإنكليزي الذي يقطن في بغداد هو الآخر تلك الأيام هذه الحقيقة.

كتبت أغاثا كريستي أكثر من رواية عن الشرق الذي زارته مع زوجها، وقد اشتهرت منها روايتان: موعد في بغداد، وجريمة في قطار



الشرق السريع، الأولى عن جريمة في شارع المصارف في بغداد المحاذي لنهر دجلة، والثانية في قطار الشرق السريع الذي كان يستقله زوجها إلى أوروبا من الموصل فحلب مرورا بتركيا. ويروي مالوان في ذكرياته بأنه كان يوما جالسا في مقطورة الطعام في قطار الشرق السريع مع ثلاثة مسافرين أوروبيين، اتضح أن أحدهم هو عالم الآثار الفرنسي الشهير كلود شافير، في طريقه إلى مدينة أوغاريت السورية التي نقب فيها في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين، فجأة انحنى مساعده جورج شينيه إلى الأمام وسأل مالوان، إن سبق له أن قرأ الرواية البوليسية «مقتل روجر اكريود» لاغاثا كريستي، فقال له طبعا لأنه زوجها، فلم يصدق شينيه ذلك، ولم يأخذ هذا الكلام على محمل الجد.

في رواية كريستي جريمة في قطار الشرق السريع، يتوقف هذا القطار مباشرة بعد منتصف الليل في اسطنبول إثر عاصفة ثلجية، وبحلول الصباح يكتشف الحراس جثة مسافر أميركي في مقصورته إثر دزينة من الطعنات، ولكن المخبر الغريب الأطوار البلجيكي هرقل بويروت، أحد المخلوقات الخيالية الأكثر شهرة، والذي انتصر على المجرمين المخادعين في ٣٣ رواية، كان على متن القطار أيضا يقطن في مقصورة من الدرجة الثانية، وتندفع الأحداث نحو اسطنبول لتدور في فندق توكتايان القريب من بايوغلو الشهيرة، وكانت الآنسة الفضولية جين ماربل هناك أيضا، وهي الشخصية الأكثر شهرة في الروايات البوليسية في العالم، والدليل الحقيقي للمخبر البلجيكي العظيم.

*

في يوم كنت في مقهى بيير لوتي في اسطنبول مع بعض الأصدقاء



عندما قررنا الذهاب إلى فندق بيرا الذي قطنته كرستي في العام ١٩٢٨، وهو فندق شيد في العام ١٨٩٢ لاستقبال مسافري قطار الشرق السريع القادمين من بغداد، وقطنه فنانون وسياسيون عديدون، فأعيد ترميمه مع مخلفاته التذكارية الثمينة مؤخرا، كانت أغاثا كريستي تقطن في الحجرة ٤١١، ويشاع بأنّها كتبت رواية جريمة في قطار الشرق السريع في هذه الحجرة. شيء أشبه بالخيال حيث يمكنك أن تتجول مع الجاسوسة ماتا هاري، أو تتسكع مع كيم فيلبي، أو تجلس مع همنغواي على الصوفا التي كان يجلس عليها ويلخّص روايته القادمة. السؤال هو كم مكان في العالم العربي، كم مقهى، وكم منزل، زاره هؤلاء الأدباء ولكن لم يهتم به أحد، بيرا مكان لجذب الزوار، والسياح من كل مكان في العالم، صحفيون أوربيون كتاب أفارقة دخلوا معنا لرؤية حجرة مفترضة لأغاثا كريستي، وقد بدأت القصة مع العرافة تامارا راند التي ادعت إنها اتصلت بروح كرستي خلال جلسة تحضير الأرواح، وادعت أن روح كرستي دلتها على مفتاح الصندوق الذي يحتوي مفكرتها المفقودة - المفكرة التي تحلّ اللغز - في غرفة ٤١١ في فندق بيرا بالاس في إسطنبول، وقد انفجرت الأخبار مثل قنبلة في الصحافة العالمية. الصحافة التركية والصحفيون الأجانب ذهبوا إلى بيرا بالاس، إلى غرفة ٤١١، اتصالات مباشرة مع لوس أنجلوس، أرضية الغرفة فكّكت، وكل شيء كان ينقل عبر الأقمار الصناعية على التلفزيون الأمريكي، أخيرا عثر الباحثون على مفتاح صدئ بطول ثمانية سنتمرات.. ولكن؟ لا وجود للصندوق بطبيعة الأمر!!...الأشياء القديمة لها ثمنها؟ مرة سألت حفيدة أغاثا كريستي وهي شاعرة إنكليزية رقيقة، جاءت إلى بغداد



لتصور الأماكن التي زارتها جدتها في الخمسينات، (وكان أغلبها قد هدم وأزيل من الأرض) ما الذي جعل أغاثا كريستي كاتبة الروايات البوليسية أن تتزوج من عالم آثار مثل مالوان؟ قالت: لكي تزاد عنده قيمة كلما كبرت!! .. فسألت نفسي، ونحن لماذا تقل قيمة الأشياء لدينا كلما تكبر؟




مكتبة
الفكر الجديد

هذه أثينا وتلك ماريلا المولعة بالشعر والدخان
مدائم الشعر والحجر... مدائم الذهب والبحر

(هذه هي أرضنا التي تحولت إلى صحرا ، عششت في روحنا مثل مرزبان قاس

حلت الثانية عشرة منذ زمن طويل، والآن أي انتظار نستطيع أن نرسخه في أنفسنا ، انتظار لا يكون جنونا (ليل الرعونة خلفنا) جنونا ، هذيانا)

الشاعر اليوناني تاكيس باباتسونيس




مكتبة
الفكر الجديد

-I-

"هذه أثينا... وتلك أعمدة الأولمب"

Une page de voyageur

(حبك ليس سوى جرح وثلاث مشاجرات، هذا كل شيء على ضفة الشاطئ، كانت البَكَرة المشدودة تصر. حورية الأعماق مزينة بألف غضب، فزت عليك، بلعبة النرد، في بوزدين. كذلك رميتك داخل حوض معتم. لقد جف، حتى الملح نشف ولكن أنت، تنتظرين من سماء طاهرة: أرضية، ساحرة، شجاعة مشتهاة)

الشاعر اليوناني نيكوس كافادياس

*

هذه أثينا التي أحببت هدوءها العظيم، وتلك أعمدة الأولومب التي أحببت قوتها التي تجاوزت العقبات وانتصرت عليها. هذه أثينا التي أحببتها امرأة خطرة ومتذبذبة، امرأة حكمت عليها آلهة الأولمب بقدر مشؤوم. فعاشت مصيرها الضائع بين الأبطال الأسطوريين والعشاق والحكماء والسياسيين والشعراء والفلاسفة.

هذه أثينا المتمردة التي تخبطت بين عالم الفن وعالم المجتمع، بين البوهيمية والارستقراطية، بين التقاليد والانحراف، وتلك ماريلا الفنانة



اليونانية المرهفة التي قدمت لي نفسها بأسلوب رائع ومتوهج، قدمت لي نفسها بين ثلاث أزهار صفر ذابلات في مزهرية، وهي تبحث في أثينا عن أحجار فقدت سحرها الذي كانت تمتلكه، وهي تبحث في جسد أثينا...المدينة الشابة عن نكهة الحياة...تبحث في البحار عن اللقى لا عن العالم وقوانينه وأعرافه، تبحث عن أثينا التاريخية التي أضعناها ..عن متربول العالم القديم الذي فقدناه..عن جوهر العالم العظيم وحكمته ومجده، عن جوهر وجوده وحبه الذي يبتكر العالم، العالم الذي تقف فيه وحيدة فينفتح الشعر أمامها.

*

لقد أدركت عند وصولي أثينا سفر الكلمات والفضاءات والعوالم المتنوعة، أدركت الرحلة إلى العالم القديم، الرحلة إلى العالم المجهول..الرحلة الاكتشاف..الرحلة المعرفة.

وقفت أمام بائعة عجوز في كيوسك خشبي في ساحة أمونيا، وسألتها.

"هل لديك خارطة مفصلة لشوارع أثينا؟"

"نعم.." وناولتني الخارطة، ثم عدلت نظارتها على عينيها وقالت:

" ستقرأ الخارطة ومع ذلك ستضيع في شوارع أثينا."

كنت أتصور بأني سأكتشف أثينا من خلال الخرائط والكتب والأوراق ..وبعد أشهر ضحكت على نفسي وأصبحت ضائعا مثل أي ضائع آخر في أثينا.

أدركت أن أثينا لا يمكننا أن نكتشفها إلا من خلال الضياع في شوارعها ومع نسائها وفي قصائد شعرائها، أدركت في أثينا شيئا من



الحس الخالد الذي يتحدد على الدوام بلغة كيانه ووجوده.. الشعور العظيم الذي يتجدد بلغة معانيه ودلالاته، أدركت في أثينا الشعر الخالد والأبدي والذي هو تغير وتجدد وهو اكتشاف ومعرفة.. وهو حس ولغة .. شعور ووجود.. لقد أدركت عند وصولي الأكروبول الجمال الشاحب للشاعرة اليونانية التي لم تفقد الاطلالة الشهوانية لجسدها وعينيها الخضراوين.

*

لهب هائل في أثينا الصباح، الوصول من المحطة، والجلوس في مقهى صغير بمقاعد ذات اذرع مكسوة بالساتان الابيض مع اريكة واسعة، لهب هائل في لقائي الأول بماريلا التي كانت ترتدي ذلك اليوم ملابس مسرحية، ترتدي الملابس القديمة التي أعادت الى ذاكرتي ثياب انتيجون ومصيرها التراجيدي الضائع، ومنذ العبارات الأولى لتعارفنا سحرني حديثها الفاضح الغريب عن جسدها والأباحية الخفية للأثينيين، سحرتني لغتها الفرنسية البالغة الهشاشة، والجارحة بوضوح...ومن النافذة الطويلة، كنا ننظر إلى عابرات السبيل وقد حققن في التنورات المحززات بالدانتيلا الحياة التي لا معنى لها إلا بنفسها، والحماسة المتوقدة التي تحقق في (حب الرجل للمرأة) أكبر المعجزات.

*

أثينا التي لا تعرف في الشعر المبالغات، هي التي كانت نائمة مستلقية على البحر، كما رآها سيفيرس مرة فقال لها:

"أنا أعبد الشاعر الذي صنعك هكذا مستلقية على البحر.."

كانت مستلقية على رمال البحر وقد صنع سيفيرس منها شعرا...كما صنع جوليان غراك شعرا من مدينة السرت..ومن أسر



أورسينا..ومن البيت الريفي على شاطئ نهر زنتا. تذكرت عند وصولي أثينا شعر ريتسوس، تذكرت حنينه الخالد، وارتجافته الأولى، وطاقة فكره. وأدركت طريقين في شعره: واحد يفضي إلى البحر، وآخر يفضي إلى الأكربول، وأنا بينهما ضائع ومضيع.

أدركت في أثينا جوهر الشعر وهو يقترب من السفر والرحلة والإقلاع والطيران والمنفى والتغير والتجدد...أدركت جوهر الشعر وهو يقترب من اكتشاف المدن الغريبة والمجهولة والتي نطأها أول مرة في السفر والرحيل...وأدركت جوهر الشعر وهو يقترب من المرأة أيضا..المرأة الرحيل..والمرأة المدينة المجهولة التي نرحل إليها بالحب والشعر والسفر..



-II-

شاعرية المدن وغرام اللصوص

"اللصان المغرمان اللذان قاداني إلى البار ذلك اليوم هما اللذان سرقا آخر الدولارات من جيبي..."

"كان يمكنني أن أعطيها لهما عن طيب خاطر."

"لا ...الأثيني لا يكسب الصدقات يأخذ ما يريده بالخدعة أو بالقوة..قالت ماريلا وهي تشرب كأسها".

"على العموم ليس من الضروري أن يكون لديك المال لكي تعيش في أثينا ..يكفي أن تكون شاعرا مشردا هناك...وأن تجوب المدن والجزر مشيا على الأقدام".

"كيف نصل المدن الأخرى والجزر؟"

"نصعد السيارات في الأوتوستوب ونضيع في المدن..سنجد هناك الكثير من الشعراء والفنانين والمسرحيين الضائعين مثلنا.."

حكمة قديمة...حكمة..قديمة في أثينا..أن نضيع ولا نجد أنفسنا إلا في الأشياء القديمة والأحجار والكلمات.

*

حين وصلت أثينا في الصباح ..كانت أكثر من مدينة مصنوعة من



الشعر، وأكثر من نساء يحملن الحقائب الجلدية ويدخن السجائر البيض في المطارات. أثينا القديمة والشهيرة تقدم مجدها الذي اكتسبته من انتصار سلاحها ضد الإمبراطوريات العظيمة، تقدم الحماسة الأسطورية والجسارة المحمومة لأبطالها والكسل المتبطل العظيم لفتياتها...أثينا هي الضجر المبكر الذي يجدد شباب البشرية على الدوام، يجدده في متعة الأفكار، والمسيرات الطويلة التي كنا نقطعها مشيا على الأقدام، وسهرات الصيف العاصف قرب الأولومب، كما أنها الثراء الأصيل الذي نكسبه من المباريات الأفلاطونية المزدهرة...

كنا نسير -أكثر من عشرين شابا- ...فنانون من كل بقاع العالم.. الحقائب على ظهورنا والساندويشات التي نشحذها من السواح الأثرياء في جيوبنا...وها هي أثينا السكون المتوعد، تقف عارية وعزلاء ومنحية كمشعل في الظلمات...

حين تعرت ماريلا الشاعرة اليونانية أمامي وغبنا معا في ظلمات حجرة مؤجرة في حي بلاكا في أثينا، قلت لها ذلك اليوم، ونحن مستلقيان على السرير:

"ليست أثينا الشعر حسب... إنما المدن التي زرناها في اليونان أيضا".

وأنا الآن أدرك أكثر من أي وقت مضى أن هذه المدن العظيمة التي زرناها أنا وماريلا مشيا على الأقدام لم تكن بعيدة عن الشعر أبدا، لا أقصد الجزر المتناثرة في البحر أمام البلقان، المدن التي يغمرها ضوء أبيض ويغشي عينيك سطح المياه اللامعة تحت وهج الشمس الدافئة، إنما المدن الحياة..المدن النساء اللواتي يستحمن في بحر اليونان، أو النساء اللواتي يرتدين البناطيل الضيقة دون كالسونات ويصعدن المدرجات العالية إلى الإكربول.



وفي اليوم الذي حصلت فيه ماريلا على المال من طبع ديوانها اشترت تذكرتين وجاءتني راكضة لتعد حقيبتها أمامي في شارع باخوس القريب من بلاكا، وهي تقول : " تعال يا عزيزي لنبحث عن الشعر في الباخرة الذاهبة إلى جزيرة كريت"...

*

في أثينا تعرفت على ماريلا الشاعرة اليونانية. تعرفت عليها في مقهى صغير قرب ساحة أمونيا، وكانت ضمن فرقة مسرحية عالمية تقدم الأعمال التراجيدية في الهواء الطلق على مسرح أوبيداروس، كان ذلك في أول المساء وسهرنا معا حتى الصباح، حتى شهدنا شروق الشمس على البارنثيون، ثم نمنا في الظهيرة والتقينا في المساء، تحدثنا عن الشعر طويلا، ثم قضينا الليل معا ونحن نعوم في البحر ونتدحرج على الرمل، كانت واهنة أول الأمر ثم سرعان ما جدد الشعر نشاطها. فأخذنا نحتضن بعضنا وسط الحركة والصخب اللذين تحرص الموجة على إثرتهما بلذة فائقة. قضينا الليل معا حتى شروق الشمس على البحر فداعبت موجاته أجسادنا العارية المستلقية على الرمل.. وصفع وجهينا صخب الأمواج التي يدفعها الهواء الهاب من العمق.

كنا هناك عند البحر نتسلى على الشطآن المغسولة والمقفرة، في الخلوات التي تمتص الضجيج، قرب الأعشاب الهزيلة التي تحاذي البحر، وقد حوطتنا أسراب الطيور المتموجة التي تحط على الرمال المخدرة.

لقد شهدنا أنا وماريلا في الليل مجد تتويج أجسادنا في اليونان، مجد المتع الأثينية في الشوارع القديمة، واختلسنا النظرات لبعضنا حتى بزغت الشمس ونشرت شعاعها الذهبي على البارثينون في الإكروبوليس،



وفي الصباح وقفنا معا... وقفنا هناك على الحجر الكبير لنختلس النظر إلى المشهد العظيم من أعلى القلعة القديمة: مشهد بلاكا المدينة المزدحمة، وأكاديمية أثينا بشكلها الهندسي الجميل، ومبنى البرلمان الفخم... شاهدنا من الأكروبوليس مكتبة كابنيكاري وكنيسة كولوريا، شاهدنا معبد زيوس والتفصيل الفسيفسائي الموجود منذ عهد بيريكليس، إنها القلعة الطّبيعية المهيبة التي تسيطر على مشهد أثينا من كل مكان، التماثيل الباقية منذ زمن بعيد، التصوير الجصي المثير، المشهد البانورامي الموحد لعاشقين منفيين في المصلى الصغير...إنها جاذبية أخرى لهذا التل العالي الذي يشبه موجة الحوريات، جاذبية أخرى لمسيرتنا الطويلة، وقد رافقنا ذلك اليوم صحفي ياباني وسائحة أميركية شابة كانت تعيش على ما يتركه العشاق على جسدها...جاذبية كبيرة للمسيرة الطويلة في شارع بلوتارتشو كسينوكراتوس، للتجوالات المتعبة في الطرق المؤدية إلى سكة الحديد الجبلية التي تأخذ الزوار إلى القمة بأجر كبير، للتمتع بالمنظر الضّبابي المخيم على المدينة، للنظر إلى الجزر القريبة، والمغازلات الطويلة في برج كولوناكي، وللجلوس في المقاهي الموجودة قرب المطاعم العظيمة المربّعة، والتفرج على دكاكين الأزياء.

جلسنا على الرصيف أنا وماريلا وأكلنا الكولوري من بائع متجول. قالت:

" إنها الأكلة الشعبية التي كان نيكوس كازانزاكي يحبها"

لم يكن معنا مالا كثيرا فتقاسمنا العملة المعدنية التي كانت في جيوبنا، وبما تبقى اشترينا الغالاكتوبوريكو (معجنات مقشّرة بسكر مطحون)...ثم ذهبنا إلى المتحف وتجولنا قرب البوتيكات:



ستينافيل..جوكسي...ماكس مارا...ركضنا على رصيف إرمو...توقفنا عند البناية المقابلة للبرلمان، وتحارشنا بالمراهقة التي ترتدي ملابس فضائحية وتقف عند الماكدونالدز...

لقد قبلت ماريلا على جدار الكنيسة البيزنطية الصّغيرة في كابنيكاري، ثم انحدرنا راكضين نحو موناستيراكي والسوق الرخيصة...وفي المساء شربنا على حساب صحفي فرنسي أنيق كان يريد مرافقة صديقتنا الإميركية، فاصطحبناهما إليالحانة التقليدية شبه المظلمة، وهناك أكلنا وجبة رخيصة على حسابه واحتسينا البيرة والرستينا، ورقصنا رقصة زوربا على صوت الموسيقى اليونانية حتى سقطنا أنا وماريلا على البلاط...فعطس الصحفي الفرنسي من الرعب وولى الأدبار.



-III-
أثينا وشعر الآلهة الضائع

هذه الأزمنة حيث الثمار تطلى بالذهب، تتلون. حينذاك، كانت قلوبنا لا تزال فتية، حية، وضوعة على أكاليل بلون أخضر فاقع كل الريح التي تلامسها كانت ريحا طيبة. عند كل نسمة تمنحها أكاليل لزهر عنفوانا ومجدا. الآن، خدعتها الأساطير بخربشاتها. هذا ما تعبر عنه انحناءات النقش المنخفض بشكل مقنع هذا النقش المنخفض الذي يصر الجهلة، على تسميته، أسطورة.

الشاعر اليوناني تاكيس باباتسونيس

*

كنا نبحث يوم الأحد العظيم، في المساحة الساحرة للأشياء القديمة عن تذكارات الحب، كنا نبحث عن تذكارات المدينة القديمة. نبحث مع السواح والعشاق والزوار عن أثر ضائع من شاعر قديم ضائع، كنا نتجمع في جمع غفير، وكان السواح الأجانب يشترون قطعا من الشطرنج الرخام، ومن المقالي النحاس، ومن القدور الخزفية. والتّحف، والعملات المعدنية والطوابع القديمة، والأثاث الكلاسيكي الفخم، كان السواح يشترون كل شيء ثمين، بينما كنا نبحث عن قصاصات صغيرة تباع، ورسائل غرام، وأشياء مهملة لا يسأل عنها أحد.



كنت أنظر إلى وجه ماريلا الذي يشبه وجه أثينا: العينان المشدودتان بقوة نظراتهما، التحديقة اليونانية المتثاقلة، والنظر إلى الأشياء بنهم كبير، أحببت ذلك اليوم لمساتها، أحببت تلطفها الهادئ وصخبها، أحببت رعونتها وفضائحيتها، وأحببتها أكثر وهي تقرأ لي في السرير شعرها، إنها وريثة الشعر اليوناني العظيم، ووريثة اللمسة النضرة لأشعار الحب، وها هي تزيح في الظلام عن جسدي تلبكه بصوتها الشجي وقبلاتها الخفيفة ولمساتها.

قرأت ماريلا قصيدتها في السرير بنبرة سريعة متجردة، فتبينت وجهها مكشوفا في الظلام ... لامعا ببريق حيوية مباغتة.

*

تجولنا ذلك اليوم قرب كيراميكوس القديمة... قرب المقبرة الجميلة، والنصب الجنائزية للأسر الأثينية الثرية... سرنا متعانقين على رصيف بلاكا، في الجزء المتميِّز والمزدحم من المدينة القديمة، لقد عشنا ذلك اليوم الظهور الصامت والساحر للتاريخ، والذي احتجز المدينة في دائرة صبحه المضيئة، شهدنا بلاغة المدينة التي تتجاوز كل بلاغة الكلمات...ثم جلسنا تحت ظلال الجدران في الأكروبوليس، جلسنا على أرصفة شوارعها الضيّقة الملتفّة، وأحببنا بلاكا وكأنها أعادتنا إلى مجدها السابق، مجد شعرائها العابثين والبوهيميين والمتمردين والعاشقين أيضا.

*

ذهبنا أنا وماريلا لنؤجر حجرة صغيرة في بنسيون قديم، كان سحر الجدران الملوّنة الباستلية والشرفات الحديد قد أسرتنا.

ومن النافذة كان المشهد الساحر: الحجارة البيضاء الصخمة،



الكنائس الصغيرة المنتشرة في كل مكان، الناس الذين يتجمعون على موقف الباص، الحانات الصغيرة المفتوحة حتى آخرة الليل، السواح القادمون من كل مكان وهم يبحثون في الدكاكين عن التذكارات القديمة... كل شيء آسر وخلاب على نحو خالد وأبدي، تكلمنا مع صاحبة البانسيون البدينة بأننا نريد استئجار حجرة، نظرت إلى كلينا وسألتنا عن عملنا:

شعراء..

هل يمكنكما أن تدفعا مقدما

على الأقل يمكننا هذا الشهر

قالت عندي حجرة بسرير واحد.

التفتت ماريلا لها وقالت ..نعم سرير واحد مناسب جدا لعاشقين وشاعرين أيضا..

نمنا في الحجرة القديمة وكان تمثال سقراط مثل أيقونة دينية تحرسنا.

*

أمضينا شهرين في التجوال في أنافيوتيكا البيضاء، الأكل في الحانات الصغيرة شبه المعتمة، الركض في الشوارع الضيقة كما كان يفعل شباب الإغريق، السير على الأقدام في جزيرة سيكلاديك، الصعود في سيارات الاوتوستوب، والقبلة الساحرة التي طبعتها ماريلا على جسدي في أيرديس قرب برج الرّياح، على الصرح الرخامي المثمن الأظلاع، هناك نمنا على المصطبات القريبة من السّوق المسقوف القديم وقد عزف لنا موسيقي شحاذ رومنسيرو الحب وكأننا نمنا واستيقظنا منذ زمن قيصر اوجوستوس... نمنا واستيقظنا في شارع الغجر، الغجر الذين



باعـوا لنا رباط الحب الرقـيق، القـمـاشـة المطرزة الملونة في سـاحـة مـوناسـتـيـراكي، في الشـارع الذي يقـود إلى الكاتدرائيـة في سـاحـة سينتاجما وبناية البرلمان.

لقـد عـشنا ذلك الصيف حـيـاة مـتـبطلة، عـشنا الحـيـاة الأكـثـر حبا وغـمـوضـا في أثينا، عـشنا الحـيـاة الضـائعـة ونحن نجوس الطرق النادرة والشـقق الرديئة والوجبات القـاحلة، عـشنا ليال أثينا، حـيـاة اللهـو والفن والمسـرح، وكـان سـيـرجي، المـمـثل الروسي المجنون هو الذي يقـودنا إلى متاهاته ومتـاهات الفن ومتـاهات أثينا أيضا... لقد نمنا في كل مكان.. على أرصـفـة المرافئ وعلى مـصـاطب الحـدائق وعلى حـجـر الآثـار... كنا نتمدد من التعب واللذة على الأرض ونعد نجوم الليل في السماء.

لقد نمنا على رمال البحر حيث الموج يحاذينا في الليل، وفي الصباح يجتاحنا المد ويبللنا، عـشنا كشعراء بوهيميين في الخرائب الآثارية القديمة وقد أخصبتنا بتقشفها العبقري.. لقد أخصبتنا بقسوتها بعد أن انسحبت من الحـيـاة الرخوة وتلاشت تماما..كنا نسـيـر من الصباح إلى المسـاء مثل الفلاسفة السفسطائيين.. وفي الليل ننام في الطرقات البعيدة التي تحيط بالآثار العظيـمـة، أو على المصـاطب في البـقع المقفرة من الضـواحي، كنا نرتكب الخطايا في الحانات الراقصة وفي حدائق الليل، شباب من جميع أنحـاء العـالم.. شـعـراء وسـواح وهاربون ومنفـيـون ومـغـامـرون ومـولعـون بالفن، باخوسـيـون أو أبولونيـون، أوربيـون أو آسـيـويون، إنها ولائم شباب مـتـمـرد قـادم من كل مكان من العـالم، ولائمنا التي لا تنتـهي منذ ظهـور أثينا على الأرض.

*



قرب الأكربول كنا متمددين على العشب ننظر ضوء القمر وهو يسقط عموديا على السطوح وعلى الآثار والخرائب التاريخية القديمة، وكانت الأجزاء العلوية من المباني ساهمة في ظلها الشفاف. أما ألعابنا السرية في الليل فقد كانت صامتة ونحن نتنفس بعمق على العشب الخبازي الناعم وننتفض من المتعة البدائية التي غمرنا بها الظلام.

الشاعرة الأثينية التي نامت إلى جانبي كانت مثل تمثال أسطوري من الرخام ببنطلون من الجينز وقميص قطني أزرق، لقد نامت على يدي وتنفست بعمق في ظل آثار الأكروبول، وفي الصباح أشرقت الشمس علينا في العراء...كان البخار الرقيق المرتجف الذي يلفنا قد اختفى بعد أن توهج النهار مثل فحم مشتعل، مسحنا أعيننا ونحن ننظر الشوارع الضيقة التي تتعرج في أثينا القديمة، ونحن ننظر الأبنية بنوافذ جميلة، ونعيش الطراوة الصغيرة على الحدائق والضواحي التي تتأرجح فوق التموجات الهائلة للأرض، كأنها شلالات من السكون المتوعد.



-IV-

حنين التائهين على الأرض

لا الكابتن الذي كان ينظر إلى ملامح بيريوس، ولا المنازل المدورة فوق سطح الجبل المحيط بالميناء، ولا حاجز السفن أو الأرصفة أو السفن الراسية، أو أجراس البواخر، أو الأمواج التي ترتطم بالرصيف، أو الابتسامات التي يقدمها البحارة للمارة، أو ضحكات النساء للذين يلاحقونهن في بارات المرافئ، أو تحقيقات البوليس عن الجوازات والتصريحات وإجراءات الدخول، ولا الحركة التي لا تهدأ عند منضدة الجمارك. تنفصل عن حنين الشعراء التائهين على الأرض أو الشعراء التائهين في شوارع أثينا.

يوميا كنا نقطع المسافة بين بيريوس وأثينا وهي المسافة التي لا تزيد عن ثلث ساعة عبر محطة المترو أمونيا، كنا نصعد نحوها من تحت الأرض.

كنت أحمل حقيبة محزومة على ظهري وأسير، وأرقب المارة الذين يهرعون في الصباح لأعمالهم، الرجال الذين يسيرون وهم يحملون الصحف بأيديهم، النساء اللواتي يحملن السلال، الكسبة الذين يقفون بالطابور في محطة المترو أو عند ميدان الباصات، عمال التنظيف وهم



يقشطون الإسفلت، موظفي البريد، وموظفات المصارف، سكرتيرات مكاتب السياحة، عمال الفنادق، باعة الصحف والمجلات في الأكشاك المنتصبة على الرصيف، عمال المطاعم الذين يرتدون الملابس الموحدة ويصفون الكراسي أمام المطاعم أو المقاهي، وهنالك السياح الأوربيون الذين يستقلون الباصات الكبيرة ويذهبون للمدن الأثرية. إنهم المغامرون الصغار الذين يغادرون في الفجر الإرجواني ويتجهون في المنحدرات الترابية والمرتفعة والمهجورة ويقطعون الأراضي السبخة والقنوات والمدقات غير المطروقة التي أقامها الأباطرة والقياصرة لتصل بهم إلى مكامن صيدهم عند البحر.

"هذا هو حنين الآلهة إلى الأرض"

"ماذا تقولين؟"

"حنين الآلهة إلى الأرض...أشعر بحنين الآلهة إلى الأرض كلما أرى مشهد الناس وهم يهرعون في الصباح إلى أعمالهم."

أو حنين الشعراء التائهين على الأرض

*

لقد عشنا أحلامنا الحقيقية في أثينا، أحلام الشعراء والحكماء والفلاسفة والتي لم تكن أحلام أثينا بعيدة عنها، الأحلام التي توحي بالسبيل الذي ينبغي أن نتجه إليه لا لأننا كنا نحب الشعراء اليونانيين، أبدا...إنما لأن العالم الذي افتتن به سقراط كان عميقا جدا فاستهوانا للعيش فيه، وكان بوسعنا اللحاق به في عالمه، وهكذا سرنا أنا وماريلا في الطرق المؤدية للآثار العظيمة في الربيع المزدهر، نستمع للأنفاس البهيجة الجديدة على الأرض، وننتظر اللقاء مع السفسطانيين... وأثينا



بكل حكمتها كانت تفتح ذراعيها لأصدقائها القادمين من كل مكان، كانت تفتح يديها للمحبة الحقيقية التي يعيشها سواحها، للمؤرخين الكثيري المطالب.

قالت ماريلا إن عشاق أثينا لا يجدون المتعة الهائلة في الإغراء والمغازلة إلا وهم يعيشون في حالة الحب الإثارة الحقيقية للقبلات والملامسات في الأماكن العالية والخطرة.

قلت لها لماذا؟

قالت: إنها تشبه حالة الاهتياج التي يحسها المتزلج على الماء وهو يشهد النهاية الهائلة للموجة الصاعدة والهابطة في منحدر أبيض.

*

لقد تعرفنا على الكثيرمن الشعراء والروائيين والفنانين والمسرحيين والصحفيين والعاشقين والمغامرين، وعشنا معا على القمم الشامخة المحيطة بالمدينة القديمة، وتلذذنا طويلا بالصعودات والقفزات والانحدارات، عشنا حكمة أثينا التي لا حكمة مثلها في مدينة أخرى، لا حكمة مثلها تحميها من طغيان التاريخ ..وهي تعيش تحت طغيان التاريخ.

أثينا مدينة بدأت باللعب بقوانين الكبار مبكرا، مدينة بدأت بالإستسلام للنزوات والاهواء والميول وهي مراهقة، مدينة لم تتزوج أحدا لكنها عاشت كما شاءت، كما أرادت واشتهت.

*

المرأة البدينة التي كانت تملك البانسيون الذي أجرنا فيه حجرة في أيامي الأولى في أثينا كانت تهتم كثيرا بالكريستالات، وبالكتب،



وبالزهور، وبالحكمة القديمة، وبمتع جسدها قبل ذبوله وتلاشيه. وفي يوم أحد سارت معنا في شوارع بلاكا الملتفة الضيقة، وبين بوتيكات الملابس والمكتبات ومحلات الزهور والمطاعم الصغيرة والتيراسات على الأرصفة غنت لنا أغاني الحب الفلكلورية بصوتها الشجي، وبنبرتها الحنونة العذبة، وفي حانة البلدة الصغيرة رقصت على أنغام الموسيقى اليونانية الصداحة وشربت نخب نيكوس كازانزاكي في رواية زوربا. وفي المساء سارت معنا في حديقة البلدة الصغيرة المغمورة بضوء القمر بثقة ومزاج شفاف، سارت على الآثار السحرية التي صنعتها الآلهة اليونانية في أوراق الأشجار الخرافية، ثم ودعتنا عند منعطف الطريق لتلتقي صديقها صاحب كشك الصحف والمجلات والكتب في ساحة بلاكا، الرجل النحيل ذا العينين الحالمتين المحتشدتين بالأفكار، ثم رفعت يدها مودعة وقالت:

(من يحب أثينا لا يشيخ أبدا).



-٧-

أثينا... والمباركة الإلهية لزيوس

(تموت الأشياء حولنا أين تقضي الليل، تسمع مثل همسة تخرج من الدروب التي لم تدسها من لبيوت التي لم تزرها من النوافذ التي لم تفتحها من الجداول التي لم تنحن عليها لتشرب من المراكب التي لم تبحر فيها أشجار مجهولة تموت حولنا يجتاز الهواء الغابات المخربة تنفق البهائم من المجهول والعصافير من الصمت تموت الأجساد شيئا فشيئا من الإهمال ومعها، ثيابنا القديمة في الصوان الأيدي التي لم نمسها تموت من الوحدة الأحلام التي لم نصفها من نقص النور خارجنا تبدأ صحراء الموت)

الشاعر اليوناني جورج تيميليس

*

في ملعب الأولمب شممنا رائحة حادة ماكرة طبعتها الآلهة على الحجر، عشنا تحت غبار سباق الجياد والعربات والعدو والقفز الطويل ورمي الرمح ورمي القرص والمصارعة والجمنازيوم منذ عهد الأبطال الأسطوريين. .عشنا أيام أولمبيا والأسرار الكامنة وراء هرقل الذي قاس ملعبها بستمائة من قدميه.

هذا هو ملعب الأولمب. قالت لي ماريلا فشعرت تلك اللحظة



بالمباركة الإلهية لزيوس، شعرت بمعبده العظيم وتمثاله المصنوع من الذهب والعاج، رأيت كاليغولا الذي أمر بجلبه إلى روما وحين وصلهم انفجر التمثال بالضحك حتى أخاف الرومان فلاذوا بالفرار...شعرت بمسرح إبيداوروس في أعالي تل غابات الصنوبر، وبالجادة التي مشيناها مع فرقة مسرحية روسية حتى وصلنا مركز المدينة.

هذه أسكليبيوس وهو في ملامح أفعى...وتلك أمسيات الصيف التي تقام بها مسرحيات سوفوكلس ويوريبيدس والممثلون القادمون من كل مكان من العالم، بملابسهم الإغريقية وأقنعتهم، في أثينا..على المسرح التراجيدي العظيم عشنا المكان الذي كان يطلق صيحات الألم والحقد والغضب والعنف والقسوة مجسدة...عشنا الهياج الحقيقي للتاريخ وهو يعود مرة أخرى وحين صعدت الممثلة البولونية على مدرجات المسرح صرخت:

(هنا مات القياصرة والنبلاء، هنا عاشت أوغستا حياتها وسط الارهاب والموت).

*

في الصيف الذي أمضيناه، كانت هنالك فرقتان مسرحيتان تجوبان مسرح إبيداوروس وهي تقدم مسرحيات سوفوكلس، قالت ماريلا لي أن لها رغبة أن ترى أنتيجون على مدرجات المسرح القديم، فجلسنا هناك لنعيش طقوس المسرح الإغريقي العتيق، نعيش السحر البدائي العميق والعبادات الأولية الحقيقية، نعيش الإيمان والنشوة الروحية التي كانت تنتعش بقوة بين الأثينيين، قوة المشاعر وسحرها، المسرح الذي يستقطب العبادات والشعائر التي يمكنها ان توقظنا جميعا. كنت مثل مواطن



يوناني قديم يطلق صرخاته ليحرض الممثلين على التوهج وبلوغ النشوة من جديد، كنا ننفعل في الحوار والحركة ونشعر بحالات النشوة والانفعالات الحادة جميعها، نحن لم نضيع تلك العبادات أبدا، لم نفقد الاحساس وقوة المشاعر وكان هذا المسرح كافيا أن يعيد لنا هذه الشعائر ويعيد ما فقدناه ويبث الروح في احاسيسنا.

المسرحي المجنون

سيرجي... المسرحي الروسي المجنون الذي تعرفنا عليه في جادة إيبداوروس كان يشبه نابكوف في وجهه الناحل، الدوائر الزرق تحيط بعينيه بفعل الارهاق، بينما كانت عيناه سوداوين بفعل الأسى .. إنه كائن هيستيري بحق، قام بأداء دور هائل في مسرحية سوفوكلس وقد سحرنا بسحنة وجهه المقابرية، وبعينيه المفعمتين بالأسرار، وبوجهه الذي يشع غموضا غريبا، وبيديه المرتعشتين القادمتين من أعماق كهف عميق.. مسرحي نبذه المسرحيون الروس وطردوه، مجنون بالمسرح التراجيدي القديم، وجود شبحي ناحل يرتاد المقاهي ثملا ويعيش بين أحجار المسرح الكورنثي القديم، مدمن منعزل لا يشارك أحدا في طعام أو كلام، يعيش بثياب ممزقة أشبه بثياب أخوة هوراس في اللوحة القديمة، كان يحفظ المسرحيات الإغريقية عن ظهر قلب يكفي أن تقول اسم مسرحية حتى يردد عليك مقاطعها كاملة مع التمثيل والحركات اللازمة.

كان سيرجي يجوب الطرقات وهو يردد أقوال سوفوكلس بصوت عال، ويتحدث عن التراجيديا الإغريقية ومشاهد التعذيب والارهاب الدموي لأرستقراطية أثينا...المسرح هو مدعاة للألم...المسرح المتوتر



المهتاج المليئ بالتشنج هو الذي يقودنا إلى التطهير، ولذلك كره يوربيدس، كان يعيش صراعا دائما مع العالم الذي يستحضره في مخيلته ويقوم بمحاكاته ليرى أحداثه العنيفة اشبه بمظهر من مظاهر القسوة والعنف. الهذيانيون والمهلوسون وحدهم السعيدون في الحياة، الهذيان هو التأمل الجبار على المسرح لإدراك الحياة، الإدمان الذي يدمره هو حقيقة مسرح سوفوكليس، الأمر الأستثنائي في الأمسيات الإغريقية والإحساس المرفه بالعظمة، إنه الإيمان بالسحر والأساطير والخرافة والحماسة البالغة للحياة الماضية والتي يبررها برعبه وعزلته ووحدته. كان سيرجي يريد زيارة الألف وأربعمائة جزيرة من جزر اليونان، كان يريد أن يزور كريت التي خبأت سرا داكنا من ماضيها القديم، كان يريد زيارة قصر كنوسوس زوجة ماينوس التي خانت زوجها مع ثور فأنجبت المينوتاور، فبنى زوجها متاهة لإخفاء عاره وليجعل مينوتاور عاجزا عن الخروج منها. هذا المكان وحده الذي يجعل سيرجي يعيش أحجية رهيبة من الممرات والسلالم والمعابر الداكنة. كان سيرجي يعتقد بأنه ثيسيوس الذي أقسم بأن يقتل ميناتور وسيعود إلى بحر جزيرة كريت حاملا شراعا أبيض...كان يعتقد أنه سيجد أريادن ابنة ماينوس التي ستعطيه كبة من الخيوط ليجد سبيلا له خارج المتاهات، وسيدخل وكر الوحش وسيذبحه، وسيصاب الملك مينوس بالحنق والغضب فيجبر تيسيوس وأريادن على الفرار. ..غير أن المأساة تتعقبهما وهذا ما يقر به سيرجي المسرحي الروسي المجنون..ويدرك بأنه لا بد أن يعود ويغرق في بحر إيجة.



-VI-

إيثاكا وعالم كفافيس الساحر

إذا ما شددت الرحال إلى إثاكا فلتتمن الطريق أن يكون طويلا حافلا بالمغامرات مليئا بالمعارف.

لا تخش الغيلان والمردة وإله البحر الغاضب، فإنك لن تلقاها في طريقك ما دام فكرك ساميا والعاطفة الخالصة تقود روحك وجسدك.

Constantine P. Cavafy

*

قلت في نفسي: هذا هو الوقت الذي ينام، فيه.. الشاعر.. والملك.. والراقصة.. والسكران.. والعاشق...كنت أسأل نفسي تلك اللحظة بالذات عن سانتوريني عن أطلانطا المدمرة عن الرحلة إلى المجهول، عن الرحلة إلى إيثاكا في شعر كافافيس، الرحلة الحافلة بالمغامرات المليئة بالمعارف، شريطة أن لا تخشى مردة الألومب ولا إله البحر الغاضب، الرحلة إلى أثينا هي أن تسمع شاعرة بيروس المولعة بالحضارة الهيلينية تتحدث وهي ترفع عينيها وتنفث الدخان من سيجارتها الكنت في وجهك، ثم تضع على كتفها حقيبتها الكاكية وترحل، وأنت مثل عامل قديم تقسم عندما يأتي الليل بنصائحه ومصالحته ووعوده بحياة أفضل،



عندما يأتي الليل بعنفوانه، بعنفوان الجسد الذي يرغب ويطالب بالفرحة المحتومة ثم يعود خاسرا.

لقد سافر يانيسبس ريتسوس في السبعينيات من القرن الماضي إلى ميكونوس التي تشتهر بشواطئها الجميلة، والبوتيكات الأنيقة و الملاهي اللّيليّة. سافر إلى الجزيرة الإغريقيّة التي تملؤها المئات من الكنائس الصّغيرة والطواحين الجميلة... فعرف جوهر الشعر...

لقد تتبعت خطاه، رحلت إلى أثينا وأجّرت هناك حجرة رخيصة، حجرة منزوية في الخفاء..وعشت حياة أثينا المملوءة بالمغامرات والمعرفة، فعرفت هناك الحانة المشبوحة والمظلمة، النافذة المقورة التي تطلق الضوء الذي يبضع سواد الشارع، الزقاق القذر والضيق، أصوات الرجال الذين يلهون، النساء اللواتي يغنين، السرير المتواضع الذي يحمل الرغبات والشفاه المتوقدة، وهناك أنتيوخس الملك السوري في مغنيسيا...عرفت الشعر من الغفوة القصير والمتقطعة على المصاطب الخشبية في الأولومب، من التمدد على العشب وأكل الساندويشات الرخيصة، من التعب بعد رحلة يوم طويل، من النساء والأحلام والفن.

أغمض عيني وأهوي في دوامة بعيدة.. فتحيط بي أصوات متداخلة مع بعضها.. أبيات من الشعر.. ألوان تبزغ وتخبو.. همهمات.. صياح.. أصوات الحقائب وهي ترتطم على الخشب.. روائح.. عطور.. غبار على الأرضية الصلبة.. قشور فواكه.. ورائحة شواء الهمبركر من الأكشاك القريبة.





سَاعات متماثلة دون وعي

مُحَاوِلة أن تُشرقَ

عند خلفيةِ الصَّفحاتِ.. حيث لون الحدادِ.

....

اليوم كانت تُمطرُ في أثينا منذ الصَّباح

إنه مطر ثلجي أصفر رفيع.

Manolis Anagnostakis

*

أثينا وجه امرأة يطلق ألف سفينة، يطلق سر آلهة الأولومب أو سر جزيرة ضاعت تحت مياه البحر في أتلانتا...كانت السماء تمطر ونحن ننتظر الباص الذي يقلنا إلى مقهى صغير في شارع قريب من البحر، احتمينا بالمظلة أول الأمر ..ثم هرعنا راكضين أنا وماريلا إلى شجرة ضخمة وجلسنا تحتها..وبقبلة طويلة استعدنا يوما جميلا من الحياة المتبطلة العابثة لشباب اسبارطة...كنا فقراء وبوهيميين، ومفلسين، وساخرين من كل شيء... من الحضارة التي لم نصنعها، من الألعاب الرياضية، من الآلهة الإغريقية، من أبطال الأساطير، من ملوك الإغريق، من الشعراء والسياسيين والطباخين أيضا...لكننا كنا نحب أثينا بالتأكيد.

أثينا التي أحببناها لم تكن أثينا التي أحبها المؤرخون والسواح والسياسيون ورجال المال والمدعون والأغبياء والعجائز...أثينا التي أحببناها ..هي أثينا الليل حينما كنا نرتحل من مكان إلى مكان على أقدامنها، أثينا الحب الذي طلبناه في عربة كبيرة من البياض، أثينا التي



نمنا في شوارعها الضيقة، أثينا التي عشنا فيها فروض الحب كما في الكتب القديمة المقدسة، حيث القبلات الرائعة هي قرابيننا، والمصاطب المنتشرة قرب تماثيل الآلهة هي معابدنا، أثينا النهار ...حين نرنو إلى نسائها وهن يسرن مثل أميرات قديمات منبهرين بأجسادهن والوسامة التي اشتهرن بها، أثينا النهار إذا ما نثرنا الورد على عبيدها ومحظياتها، وتعرينا لنفرغ أجسادنا كما تفرغ السلال في بيروس حين تأتي السفن السداسية المجاذيف من الإسكندرية، أثينا النهار في عيون بلون الرماد متوهجة مثل حجر كريم، وإذا ما تبادلنا الحب تحت الأشجار وتشاجرنا في الحانات عند منتصف الليل، وإذا ما عدنا أنا وماريلا إلى حجرتنا...وفتحت النافذة، فأضاء شعاع القمر جسدها الأبيض العاري الجميل على سريري الصغير.

أثينا التي صنعتها الهدنة المقدسة ومتفرجو ساحة المصارعة والسفر بأمان إلى أولمبيا، أثينا التي صنعتها العربات التي يقودها الفرسان المتسابقون، والأبطال المتوجون بالغار، والمسارح المحلية المصنوعة من الحجر، أثينا هي إكليل الزيتون الذي يحمله هرقل والنساء الممنوعات من دخول مسرح الأولمبياد.

*

كنت أشعر أمام التماثيل البيض بشيء ما يتوارى وراء الظل، أشعر بنكربول الأموات وبرائحة الموت القديم واللذة المهجورة، فالأرض التي أشبعتنا موتا كانت تتنفس صامتة، أما المرأة التي يتصاعد في أعماقها هذا الحس الأسطوري العظيم فهي تشعر دون شك بثبات فضيع، تشعر بالنهاية التي تبزغ وتحل الساعة الأخيرة محلها، كانت تحدق في



جدار البحر الصامت، واللون الأزرق الذي يزداد كثافة، وبالمدينة التي تتنفس حابسة أنفاسها ومسمرة عينيها في الضياء.

كنا قرأنا قرب تماثيل الأولومب البيض قصائد أناجنوستاكيس المبكرة، الأبيات الطويلة ذات النهايات المنغمة، الأفكار التي تَأْخذُنا بعيدا نحو الأعماق، التي تقودنا إلى تَقديم جميل غير مُزَيَّن أبدا، إلى فكرة مقتضبة، وحقيقة متجهمة وصورة مميزة، إلى الشِّعر اليساري ذي النبرة الوقحة.

كل شيء يكذب ارتياب الشاعر قالت لي ماريلا... وفي الفضاء سمعنا أغنية قديمة كان سيفيرس هو الذي كتبها:

(أنا جوّال بين الأشجارِ الصّفر في المطرِ السّائقِ
على المنحدرات الصّامتة،
لقد حَمّلت بأوراقِ الزان
لا نار على قممهم التي أصبحت مظلمة).



-VII-
شعر.. مدينة.. وعناق طويل

(مسافرون من قرف إلى آخر من صمت إلى آخر من وحدة إلى وحدة أكثر وحشية أيضا في ما راء الزمن الجامد هنا عند تخوم اليأس أعود لأجدك ضربة شفرة عميقة قمرا فاقدا دمه حريقاً ليلا قطبيا زوبعة المدارات وحلا دنيئا)

الشاعر اليوناني ميناس دياكيس

*

سرنا أنا وهي متعانقين طوال الليل في شوارع أثينا... نبحث عن الكَلمات الناقصة، عن قبلة الحب الموضوعة في محل عام، عن الأشياء الأكثر بساطة والتي تتوائم مع الأحداث، عن الأفكار الأفضع والتي ما زالت طرية حتى الآن، عن الكوارث الكبيرة التي مرت بها أثينا.

"الشّاعر في أثينا أكثر قيمةَ من أي شيء، أكثر قيمة من الماء وأقل من تماثيل الأولومب"

هكذا قال لنا الرجل العجوز في الباص، الرجل الذي كان يقرأ الجريدة وهو يصغي لماريلا التي تنغم بفمها الشهوي قصائد أناجنوستاكيس، تنغم قصائد شاعرها الوحيد، سلاحها الصامت، وبنطلونها الجينز المحكوك من عند مؤخرتها.



(لا يقرأ الشعر في الشوارع إنه يقرأ في المعابد والأماكن المقدسة).
(بل يقرأ في السرير..) قالت ماريلا وهي تتعلق بذراعي وتضحك.
كانت الزهور الطالعة من الصَخرة الصلبة تواجهنا، كان البحر الأخضر المحزز بالعروقِ يذكرنا مرة أخرى بحبٍّ التوَهُّج في المطر الرَفيع البطيئ، كانت زهور الصّخرةِ بأشكالها المتعددة تتمايل على شعر ماريلا:

(لا أحد يتَكلم
أنت تَركتني أمْسَهم بعد الصَمت بِين أشجارِ الصَنوبرِ،
ونباتات الدفلى، والأشجار الطائرةِ)

*

ذهبت مع ماريلا إلى آيا نيكولاس الحي العادي في العاصمة أثينا الذي كان يقطنه الشاعر ريتسوس، تعرفت على صورته بقامته الطويلة وذراعيه النحيفتين وشعره المرسل إلى وراء وذقنه الرمادي، دخلنا حجرته التي تضم طاولة مستديرة وعلب سجائر محلية وسكيتشات لبابلو نيرودا، رأينا لوحاته الزيتية، وصوره الفوتوغرافية والبورتريهات الكثيرة، شاهدنا أصص الزهور التي نسقها بيده، قرأنا قصائده المكتوبة بخطه، وقلبنا كتبه الكثيرة والمتنوعة، لقد شعرت بوجوده -حتى بعد أن مات- وهو يشرب القهوة اليونانية ويأكل الكعك المحلي ذا الرائحة العطرة، ويقطع الطرق والأزقة القديمة في أثينا بحثا عن مقهى بائس أو مطعم يرتاده العمال والفقراء والبحارة الهرمون...تعرفت على المكان، على أثينا الليل وهي تعلق فوانيسها الزيتية التي تتوهج وسط الضباب، واشترينا أنا وماريلا سمك السردين الطري، مثلما كان يفعل راهب



القرية في شعر ريتسوس، وعدنا في الطريق الرئيسي حيث الصيدليات المناوبة، ومحطات الوقود المفتوحة، وأسلاك التلغراف التي تئز في الريح. هناك رأيت بائع الفاكهة الشاب الذي فتح مظلة سوداء كبيرة فوق عربته، ورأيت التضاد بين البرتقال الذهبي والمظلة السوداء، وسمعت صوت المطر الذي جعل المشهد جميلا وغريبا وغامضا...هذا هو السفر إلى أثينا..إنه الشعر كما حلم به ريتسوس.



-VIII-

فنان من أثينا

(يحجبنا الضباب هذا المساء

اختفى فانوس المركب

ظهرت بشكل غير متوقع

في مركز القيادة كي تريني. ترتدين الأبيض ومبتلة عقدت شعرك مثلما أستطيع هناك عند دخل مرفأ (ايفاسو) تمطر دائما خلال الصيف. السائق المبقع بالشحم يترصد أقدامنا في القفة لا نظري بتاتا إلى أعلى الصواري مع العاصفة، ستصابين بدوار الغنم) .

الشاعر اليوناني نيكوس كافاداس

*

في مساء يوم أحد عرفتني ماريلا على فنان أرمني يعيش في أثينا اسمه ديريك أوشكان، كان شخصية مشهورة بغرابتها وشذوذها كان يرسم على كل شي وفي كل مكان، على طاولة المطعم.. على الصحن ... على المنفضة..على أرض الرصيف، على ورق قذر، على ورق دفاتر، على ورق الجدران، على الصحف القديمة، وعلى جسد حبيبته، يخطط بخطوط منفصلة مربعات وشجيرات وأشكالا بشرية وطيورا ، يرسم وهو



يأكل وهو ينام وهو يتحدث، وهو في الباص أو في المقهى وعلى الأرض وتحت ظروف متباينة ومناخات متعددة، وعلى مختلف المناضد، مناضد المطبخ، والحدائق، ومناضد تنظيف الأسماك، التي تآكلت بفعل الماء والملح، وظلت عادة فرش المنضدة بالصحيفة هي الأثيرة لديه لأنها تمنحه فرصة أن يرسم ومن ثم يبحث عن كلمات وخطوط ورموز جديدة، ثم ينقلها بعد التمحيص والتدقيق كاملة إلى الورقة.

*

في مرسم ديريك أوشاكان الصغير أكلنا سندويشات بسيطة وشربنا النبيذ، فأخذت صديقته تعزف الغيتار وتغني أغاني شارلز آزنافور وهو مطرب فرنسي من أصل أرمني أيضا، بين آونة وأخرى يصدح صوتها، بأغنية sur ma vie أو il faut savoir أو Hier encore وهي الأغاني الشائعة للأخير، بينما كنا أنا وماريلا وفنانة تركية نجوب مرسمه الصغير الذي غطيت جدرانه من الأرض حتى السقف بالرفوف، وامتلأ بالكتب والموسوعات وألبومات الرسم ورزم المجلات القديمة. كانت الفوضى هي السائدة في المرسم، الستولات استاندات الرسم، منضدة الكتابة الضخمة، ألواح الكرتون وأكوام المخطوطات، ورزم الرسوم وصحون السجائر الضخمة والمتنوعة، ووسط جبال المفكرات الرثة والصور والغلايين وعلب الدخان وسجائر "غلواز"، كانت هنالك لوحاته المؤطرة ببراويز خشبية.

حين أتذكر دريك أتذكر أثينا، إنه يرتبط بالمكان تماما، يرتبط بالأريكة التي يرسم عليها، باللهجة المدنية التي يقلدها، رزم الكتب التي يحتفظ بها، يتصفحها ثم يرسم على أغلفتها ما يراه مناسبا لها، يرسم ويرسم حتى على ملابسه الداخلية وهو يدخن السجائر الثقيلة.



قال لي مرة بعد أن أشعل سيجارته، ورمى عود الثقاب في صحن السجائر، وسعل: ". يا صديقي أنت لن تنسى أثينا...لأنك أحببت بها..أثينا تترك شيئا مأساويا دائما وهذا ما تنبه له مسرحيوها العظام .. صمت ثم قال:

(أثينا ... مثل السجائر الثقيلة دخانها يدخل الجسد مثل المبرد ومن النادر أن يشفى شخص من حب أثينا).




مكتبة
الفكر الجديد

بقايا رجل من أثينا
(من دفتر ذكرياتي في أثينا وبيروس)

البحر في بيروس

-تسكعنا من الصباح حتى المساء-ما معنى أن نكتب الشعر في بيروس.

ها هو باخوس يطل من مخبأ على بحيرة، من تجوال عاهرة على الرصيف، من صيادين وأطفال عند البحر، من امرأة تبقى في الخلف وهي تندهش من مهارة الذكور، من النشاط القاسي لبحارة يغرزون أقدامهم في الرمال، من نهد صغير يبهرني، من نادل ثقيل تحت ناظري، من شحاذ يرفع اصبعه محتجا.

نزل ريتسوس من موقع المراقبة، وحمل بيده عصا والتحق هناك بزمرة الصيادين وبالقتلة الصغار الذين يحملون أسماكا بأيديهم.

أثينا/ساحة أمونيا

الأسى

هذا الأسى لا ينتهي مطلقا..فأنا لست هوميروس.. ولا أنت ميديا.



الله وحده يبحث اليوم عن سعادة مخلوقاته، ليس لنا مكان ولن نتوقف مساء في الطريق، كل شيء قبيح سوى النسيان والوقاحة، وهذه النادلة التي تحادثني عن سقراط كان السائح يحتك بمؤخرتها.

هذا الماء يسقط قبل أن نلقي أسماكنا فيه، هناك حوض نافورة، وجندول صغير وقارورة شهواتنا على الرف...في يوم ..سنسبح مثل أسماك عاريين على البلاط وستسمعين همس سمكاتي في حوضك.

شارع بيروس/ساحة أمونيا

ليس لي موعد معك

أمن هذا الصباح الرمادي تأتين؟

إنا ممتن لك بهذا الضعف وبهذا الضجر، ممتن لك بباقة الشكوك، بالوردة العاطلة، بالنصيحة التي تقدمينها لي كعارف خبير.

إن خرجت اليوم من شقتي، أين سأذهب: الشوارع مهدومة، الاشجار يغسلها المطر، البنايات التي تحجب السماء تثير الرثاء، الحافلات تهيمن على الشارع مثل كابوس، المقاهي مغلقة في المساء، والنساء يغادرن في الظلام خوفا من أن ينظر إليهن أحد.

ومن ثم بعد ليس لي موعد معك.

بيروس

بقايا امرأة من أثينا

كل ما تركتيه في شقتي بقي كما هو.

بعد رحيلك سلّة الغسيل في الحمام كما هي. الجوارير ملأى



بأشيائكِ. مشدات صدرك، كالسونك الأبيض، بنطلونك الجينز الذي اشتريناه مستعملا، جواريك. وقميص به عرق امرأة، كل شيء في حجرتي الصغيرة يحمل بقايا عطرك، حتى جسدي يحمل وسم امرأة من أثينا مثل ندبة.

هل أقول أحبك..ها أنا أدير وجهي إلى الحائط وأحملق في تشكيلات ورق الجدار كي أتفادى كل ما يذكرني بك.

أثينا

يوم

اليوم أشعر بالضياع أكثر مما مضى.

أنت تبكين أمامي وتضعين يدك على الطاولة.

هذا صمتك وكأسك مثل بئر نقبه البدوي في الرمال، هل أشرب قليلا ثم أهرب من المقهى وأسير بعيدا عن القافلة؟ أزرار قميصك المفتوحة تلاحقني، ستيانك تحت شراشفي، فندقك يبتعد عني، حقيبتك ما زالت في الممر وحذاؤك تحت سريري، والباص الأصفر الذي كان يقلنا فيما مضى لم يعد يتوقف لي.

أنا لست شيئا أبدا إن لم أحبك..ماذا سأفعل هذه الليلة إذا ما شارف كل شيء على الانتهاء.

هل هذا ما يجعلك غير مكترثة أو دارية بي؟

المرأة التي أحببتها قبلك فارقتني أيضا دون أن تقل لي شيئا أبدا.

أثينا



مدينة أخرى

هذه المدينة المصنوعة من حجر لم تكن يوما في إثاكا...أنا أختبئ منك في قبو الفندق الرخيص، ليس لدي سوى مؤونة قليلة من الأقلام ومما تصنع القهوة منه، ليست لأفكاري ظلال، ولا لجسدي رائحة.

كنت أشم شهوتك من بعيد، أشمها وهي تختبئ في مغارة أحد غيري.

وأنا هنا وحيد، ليس لدي سوى رأسي، أحاول أن أضاجعك وأنت بعيدة،

أحاول أن أعيش من دونك ...يا لها من مهمة وعرة.

أثينا /إيبيداروس

معنى

ما معنى أن نمنح أنفسنا لهذه الرحلة في الباخرة المتوجهة إلى أثينا ؟

أية لغة أخرى يتوجب علينا أن نتعلمها ؟ أي رأس لباخوس يتوجب علينا أن نضحي به؟ لقد نمت شفاهنا من جديد، وعلينا أن نقبل بعضنا بعضا، علينا أن ننام في الشوارع الباردة، أو على الأرصفة المحاذية للأكروبول، أو في المترو، أو في الحدائق التاريخية أمام التماثيل المنتصبة مثل شحاذين.

علينا أن ننام ونتسمع للفيولونسيل وهو يعزف للعشب الناعم، يعزف لقشور البيض المسلوق على الرصيف، وللحقن في الصيدلية.

أو علينا أن نطرق أبواب الفنادق ونصرخ:

نحن..غرباء..غرباء وشعراء أيضا.

أثينا /شارع بلاكا



كوكب

حين رفعت العاهرة اليونانية يدها ..تخيلت أنها تشير إلى نجمة جديدة في المجرة.

كنت نائما على المصطبة الباردة دون عشيقة دون أهل دون طعام دون قهوة.

نظرت إلى النجمة في المجرة التي سينتهي الأمر بهؤلاء الفلاسفة إلى اكتشافها. نظرت إلى البهجة الشريرة المتوقدة من العلوم والمعارف وهي تحيي بعد موتي كل ما تستقر عليه يد هذه العاهرة اليونانية.

قلت لها: سيدتي لقد استقر البرد على الأكروبول، ومات الفلاسفة منذ زمن بعيد، وأنا علي أن ألتقط من الكلمات، والإيماءات، والنظرات أثرا ولو بسيطا للبهجة.

سيدتي..أنا دون وطن..والشعراء الذين كنت أعرفهم أصبحوا جنودا.

أثينا

الإلهة-البائعة

كنت أتفحص عيونك أمامي وألتذ بسماع حكاية قديمة.

هل تعرفين الأساطير؟ أنت تناوليني علبة السجائر وتلتذين بموت إلهة من بعيد.

أناديك..أصرخ عليك..أنت لست مصنوعة من حجر، لست مصنوعة من غبار، لقد حلمت طويلا بتهدمك وسقوط أسنانك، حلمت بوجودك حقيقة لا خرافة.



أنا أنتظر إعلان حدادك في الغد أيتها الآلهة البائعة. ليس لدي علامة على موتك سوى الإيرينيات الموجودة في علبة الدخان، وشيء ما سينطفئ في داخلي غدا.

أثينا

وحيد في العالم

لم يسعد السفسطائيون بهذه الأسئلة، لم توقظنا ثرثرتهم في منتصف الليل، لم تشحب كلماتهم في الفجر مع النجوم.

استيقظت في الليل، كنت في فندق رخيص،

ليس لدي مال أنفقه على نفسي..ليس لدي سؤال أطرحه على أحد.

الكتاب مفتوح بالقرب مني مثل جرح قديم،

كان علي أن أقرأ بعض الفقرات لفيلسوف غريب، كان علي أن أفتح يدي للمقهى المليء بالضوضاء، للعجوز الذي يقرأ الجريدة، لشهوة النادلة المكبوتة، للشاب الذي أعجب الحكماء به هنا لفرط وسامته، للشحاذة السكرانة النائمة بالقرب مني.

غير إني استيقظت مرة أخرى في منتصف الليل،

لا لشيء...إلا لأني غريب.. وأعيش هذا العالم وحدي.

أثينا

نعاس

كيف سأعثر على النعاس، ومن سيسرد لي حكاية؟

سمعت في اليونان حكايات كثيرة.. سمعت أساطير وحكايات عن ملوك وآلهة..سمعت حكايات الفلاسفة كلهم..غير أن النوم غادرني.



قالت لي النادلة الحكيمة:

سيدي ستنام طويلا..ستنام طويلا وعميقا حين يتوقف اليونانيون عن سرد حكاياتهم ويقدموا لك النبيذ والطعام والنساء.

أثينا

تهدم

ماذا تبقى لنا لنقوله ؟كأسا بعد كأس ..شربنا الأسى ولم نوقظ الآلهة في الكتب التي قرأناها، نحن نفتح عينا واحدة لنرى الأبطال في الأساطير، نبسم بغموض للقطة التي تطل من النافذة. نقبل بعضنا على الجوع ثم ننام ثانية...

هل أوقظك هذا الصوت ...لم يتهدم الجدار الذي بناه الأباطرة ..هذا صوت قلوبنا وهي تتحطم.

أثينا

عزلة

نحن هبة عزلتنا..هبة النقاوة التي ستفطس يوما ما.

عزلة الآخرين الذين يأتون نحونا،

تعالي فقد آلمتك شمس الأكروبول ونحن لن نبحث بعد اليوم عن أحد، لن نبحث عن شيء آخر أبدا، سنستلقي على الحجر الأبيض في ساحة في أثينا...وننسى سريعا هبة الشمس...لأننا مسحورون منذ سقراط بالظلمات.

أثينا



نيرون

قاسية هذه الساعة الموضوعة على جدار المطعم.

انتظرتك ..كنت وحيدا وأنا أنظر هذه الوجوه التي تتساوى بشراستها. لم تعد الكتب تحمل اسما نعرفه، الصحف لا أجرؤ على فتحها والحب يسقط كالغبار بين اصابعي.

سيدتي أنا جندي غريب في ضوضاء أثينا وهنالك قيصر واحد في بيروس سوف يعاقبني.

٥/شارع إيرمو

أثينا/امرأة

بعد أن نجوع في الليل..في برد أثينا..نعثر على عري البلاطات الباردة. أنا سكران وأنت شاعرة فمن ذا يدلنا اليوم على كلام نتغطى به.

ها أنت تذهبين إلى الحمام المهدم الذي تفوح رائحة البول منه...و أنا أخلع معطفي الرث في الشتاء، لي حنين إلى الأفعال الناقصة، لبلاد أخرى لا يعرفها السفسطائيون ولا الفلاسفة، للقرب منك والنأي عن الأكربول، للتمهل ونحن نلوك اللغة المستهامة، للدخان الخارج من اللغة المستعادة في فمك، للطريق العصي على القبض، للطريق الذي لا يفضي إلى أثينا.

أنت الإلهة التي تزيحني وتبعدني، اتركيني على الاقل ابحث عنك.

بيروس



تمثال سيفيرس

أنت شاعر مقصى غير إني لا أعرف أحدا غيرك.

صديقتي اليونانية ستكرهني في الصباح وتنسحب مني...العالم سينسحب مني.

هذا شعري القبيح وأنا فخور به. صمتي اليوم سيتكلم نيابة عني، سيقول شيئا شنيعا مثلي، أنا لا أحب الفلاسفة ولا الشعراء ...لي رغبة أن أكون وقحا..لي رغبة أن أشتمك وأحيي المغمورين مثلي ...أحيي الذين اختاروا الرصيف وخطى الجرح وفخامة الضياع.

نحن الأبطال المتجردون من كل شيء، والرصيف بلادنا.

أثيكا

فكرة

لا أحد يحمل فكرتنا غيرنا.

العدم هو الذي يمنح الوجود للأفكار، يمنح وجودك، وجود الحاجات بين يديك...كل شيء هنا يمنحنا عدمنا، قمصانك التي تحمل رائحتك، صندلك الأصفر، اللوحات التي تعلقينها على جدار الحجرة، الطاولة المكسورة بالقرب من الحمام.

على رف المطبخ خلعت ملابسك وتعريت. أنا أمامك لم يبق لي سوى كتاب صغير ممزق الغلاف، وقلم نصف مملوء بالحبر، وقد أفرغت في المساء فيك كل عاطفتي..

فتهيئي للتحليق...فأنا لست من أثينا.

أثينا



رسامة بولونية

- أنا رسامة بولونية وأنت شاعر..سيدي جئنا من بعيد لنتضاجع على عشب الحدائق في أثينا..لننام تحت السماء السوداء وقد لمعت النجوم فيها..لنجوع في الصباح ونبحث في المساء عما يلقي السياح به على الأرض..تعال ..إلي

أنا هناك أنام قرب حمام مهدم تفوح رائحة البول منه..

ولا رغبة لي سوى أن أنهي حياتي في سرير.

أثينا



(أنا زهرة النار... أنا حصة الآلهة)
رحلة إلى الجزائر

(بداية منفى، السماء تمطر ظل بياقة مرفوعة ، السماء تمطر ،
كنت في السادسة عشر عندما كانت السماء تمطر، المدينة تخشى الغربا ،
وتحب مواطنيها ، اتخطى ، اسحب اقدامي ، لدي رسالة منك اعيد
قراءتها ورسالتي لاغنيها ، انا قارة تحلم بالهاوية)

مالك حداد

رصيف الزهور لا يجيب





مكتبة
الفكر الجديد

-I-

مقاطع في تقريض المدينة الغامضة

الجزائر–ساحة أودان

الفجر هو وقت عمالها وبحارتها ومقامريها ومغامريها، والليل هو ليل أسرارها وألغازها وسحرها ونبوءاتها. أما في الضحى، فلم أجد سواك يا مدينة البحر مكشوفة تبزغين أمام النهار الطالع، مولودة من جديد، بريئة بعد أن اغتسلت من عرق الجنس ونداوة الخمور والحشيش في الليل، بعد أن اغتسلت من دم الضحايا المذبوحين في الزقاق، أنت نائمة هناك، غافية على البحر، ما زلت تستشعرين شراسة الطباع أوقات الزحام، وعند أوقات الصراع تعيشين على فتات الخبز في المراكب وسط البحر.

أفكر فيك وفي ميناءك الكبير، وفي مراكبك وبحارتك ورجالك ونسائك، أفكر بمرافئك العظيمة المسيجة التي تدخر تاريخك، لا مرافئ بالميرو ولا مالقة ولا الإسكندرية تشبه مرافئك، لا تأريخ يشبه تاريخك ولا عادات تشبه عاداتك، ولا مغامرات تشبه مغامراتك، ولا بحارة يشبهون بحارتك، ولا أسرار الموانئ في العالم تشبه أسرارك...أنت المدينة التي عرفها هراقلس مع صحبه العشرين قبل أي أحد آخر، أنت



الصراع الإلهي القديم الذي ورثه اللاتينيون بعد سقوط قرطاجة، أنت جزائر بني مزغنة..طرة الصباح التي سافر إليها المرتحلون على بياض الساحل وخضرة المروج...وهذه موانئك إلى اليوم تحتضن أساطيل البندقية وفلورنسا..بل كل شيء يرتبط بمجدك يا مدينة البحر: قمار وحشيشة، خمرة ومناضلون، شهداء ومجرمون، شعراء وفلاسفة عظماء، صحراويون وفقراء، محظيات وقرانصة، نساء وجنود استعماريون، وعاهرة إلى حد ما ترتبط ببحرك...ولكنك وحيدة يا مدينة البحر أمام النهار الطالع مستلقية على الرمل ساهمة هناك وكل من يراك يدعي امتلاكك: رومان، فينيقيون، عرب، برابرة، أتراك، فرنسيون، مواطنون، مستوطنون، فلاحون، وحتى سواح غرباء...لكنك وحدك يا يد الآلهة لن تكوني إلا لنفسك... لست لأحد على الأرض لأنك مثل البحر والسماء والهواء لا أحد يقوى على امتلاكك... وحين سرت في شوارعك... وصعدت السلم العالي المظلل بالأشجار شعرت بأني ساكن متجذر فيك، لمستك ...لمست جسدك كما لو كنت أتحسس جسد امرأة جميلة...أنت الكهلة ما زلت صبية....صبية سمراء شبه عارية...أنت الآلهة المستلقية على البحر...وقدماك سابحتان في اللازورد الأبدي...



الجزائر / رصيف الميناء

بحارتك رقيقون يدخنون بشراهة، وينظرون إلى الناس بعيون أليفة. شحاذوك ضاحكون، وعمالك يطلقون اللعنات والشتائم دون تحفظ أو حياء.



مراكبك عتيقة وصدئة، شوارعك وساحاتك واسعة، وعلى الأرصفة المبلطة بالحجر يجلس باعة الكتب العتيقة والتذكارات، وعند الميناء أطفال نائمون على الإسمنت، وشحاذون يتململون بجلابيبهم الوسخة استعدادا ليوم طويل.

ميناؤك مزدحم، وضجيجك ينسيني فرحة الموسيقى التي تهب بعذوبة من المقاهي على الرصيف.

صيادوك بوجوههم البحرية المعروقة يقفون عند المحطة يبيعون السمك الذي يلبط في السلال، عمال يأكلون الخبز ويشربون الشاي، أو يتحدثون بصوت خفيض، زبالون يتيهون في الحدائق ينظفون المصطبات ويلمون الحشيش....غبطة تجتاحني في ازدحام شوارعك وأنا أشعر بأني أنفذ فيك، وفي روحك، أشمّ روائحك، وعالمك، وفراشك، وعرق ملابسك، ومناخك الحار المفعم بروائح الأسماك، أشم صدأ البواخر، والحبال المجدولة المبللة، والمياه المالحة، أحس بضراوة حريك من أجل يوم جميل، من أجل يوم للفقراء القادمين من الضواحي ليعملوا في شارع فانون أو ساحة أودان، ليصلحوا الرصيف أو ليسدوا الثقوب.

*

غائبة أنت عنا، غائبة مثل عراء البرد، وطالعة إلينا بفضل روحك البيضاء وجسارتك القرمزية، الحب لا يناوؤك، ولا يجعل التاريخ من إسمك خرقا للمحارم، أنت المراهقة التي تعرف كيف تبتسم لأول وجه، دون أن تخون تناقضها..وها أنت اليوم ذابلة ولك ملامح وجه رهينة أو وجه أسير...لماذا تهربين وتراوغين؟ عثمانية كنت... قرصانة تقاتلين عند البحر موسومة بأشرس الطباع، خادمة صرت في بيوت الأثرياء



الفرنسيين، فللهم فخمة على البحر، وهم يقضون لياليهم في النوادي والفنادق الفخمة، يتزينون بأحلى الملابس ويضعون أثمن العطور، ويسهرون حتى الصباح...بسيطة أنت، همساتك ناعمة، وضحكاتك مثل كركرة الأطفال، وفي الليل غانية وسكرانة ساقطة على الرصيف... وعند صلاة الفجر تنهظين.

*

الجزائر/شارع ديدوش مراد

باراتك رخيصة، ميناؤك الكبير واسع، أسواقك الشعبية مزدحمة، وأحياء الفقراء تعجً بالغبار والذباب، ويروي أهاليك حياة البحر بصورة مثيرة، تدور ألسنتهم بلا كلل وهم يروون عنك حكايات كثيرة، لكنك أسيرة... وخفك الذي يدهس الرمل في الصباح يذيب على البحر غضارة الليل ونداوة الصباح... مبللة في المغيب، رأيتك... وقد غرد الشتاء على صخرتك، ومال البحر بلسانه الأزرق الطويل وبلل ثيابك.

هذا هو الأفق والفجر المرتجف والوقت المملوء بالفصول، هذه منازلك التي تضحك من كل قلبها ومراكبك التي تصطخب، وريفك المذعور من الفراغ، هذا بحرك بلا أثاث وفيضك ونارك الخفيضة وطيفك الآسر...هذا طفلك الأبدي بملابسه الفقيرة يروي منذ الفينيقيين قصته، هذا نورج الشموس على الأرض، برادة الحديد الساقطة على رصيفك في الأبيار، هذا الشتاء الذي هلل أمام المسرح البلدي بالمطر، نير الغفلة المفاجيء في مكتبة لاتيير موند، نظرة الطفل، عمرك العاري في الفراغ وقد حدده اتجاه الريح، ها أنت تمنحيني اليوم كل ما منحتيه للكهول.

*



في مطلق الأمواج أصبحتِ غريبة الوجه، خالية الفرح...الأيدي الخشنة تذبح أبناءك مثل الخراف...ماذا نسميك إذن؟ نسميك البحر...وأنت الشجر..نسميك الضلالات وأنت مدينة البحر...فلحبك سبب ولسعادتك سبب، وليس لك نظير في أي مكان آخر...ايكوسين اسمك، سماك الفينيقيون وعبدوا عواصفك التي دامت طوال الليل، وبلل المطر شعرك الجميل، هاربة منهم ومن القرطاجيين، وخائفة وأنت تدسين برفق ساقك في البحر، ها هما ذراعاك على الأطلسي يحملان الرمل ويهللان لخيال المراكب بصوت خفيض، وفي أعماق السكون كانت الآلهة عارية، ترسم العقود على عنقك وتطوبك كل ليلة بالورود.

للقراصنة فتحت بيدك ثوبك وعرضت لهم نهدين ناعمين في غامض النور، فتجمعت مراكب القراصنة حولك.

الجنة أيام القطاف اسمك... وأنت الصبية ذراعاك مشغولتان طوال النهار بالثمار، أكليلك عطر وزنارك مصباح، وأنت مثل فلاحة شابة دائرة ظهرها لجنوب البحر ولغرب الجبال:

الكلام معك خطيئة ولمسك محرم.

*

عندما نقول الجزائر، نقصد الحب في وجوده المدور، البحر الذي يفرط ببنيه، والباخرة التي تكمل سلالةَ القراصنة. نقصد الأحداث الباطلة التي عرفناها، والموجة الكبيرة الهائجة، الكلمة التي تمتد مثل لبلاب، اليد المبتورة التي ترتجف على الرمل، عندما نقول الجزائر نقصد شبابك الذي يمد ضوضاءه مثل سعفة، الشباب الغض الذي يسرع، نقصد المراهقة المتوحشة التي تحلم بيوم ثري أبيض يحفر دهليزه في الظلام، المجد الذي



كان مهجورا، الشجرة التي فقدت برعمها، والأيدي التي تمتد لتكليل الظهيرة...

طالعة من سماء البحر ومن خبز الرجال، أنت يا حجرا مظلما وقاسيا إني قرأت في وجهك تطاعن هذه الوجوه، قرأت في وجهك ملامح أخرى حالمات مهاجرات، وفي عرقك الذهبي يطير النهار إلى غمامة ربيع آخر.



-II-

رحلة إلى الجزائر أو رحلة إلى أعماق الليل

(بعيدا عن نجمة، ساقطين إثر خطانا
بعيدا عن نجمة...
فلنلم شملنا حتى وإن بعثرتنا الريح
فمن خلالنا نتواصل النار
حرارتنا سرقت ونحن نعج في المعابد نبقى مهجورين ونحن نحترق)

Etoile

كاتب ياسين

*

من البوابة الحديدية الضخمة لمطار بومدين خرجت إلى الساحة المبلطة الواسعة، كان هواء المدينة الرطب والمحمل برائحة البحر قد غمرني بنسماته الباردة، بينما كان مطر آذار يهطل بصورة متواصلة، وقد احتمى المسافرون وسط الفوضى والصخب تحت المظلات والمسقفات الألمونيومية والأفاريز الطويلة مختلطة أصواتهم بأصوات الباصات والتاكسيات وأصوات الحقائب التي تكرخ على الرصيف، لم يكن المشهد صادما نسبة لي غير أني تذكرت تلك اللحظة بالذات مشاهد عديدة من



روايات برترون عن الجزائر العاصمة، تذكرت سائق العربة البربري القادم من تلمسان، والمرأة العربية التي تطبخ السمك بالبوييت والزيت المغلي، تذكرت تلك اللحظة خطى إيزابيل إبركهارت المتوثبة على الرمل وكتاباتها عن الشيمة الرومانتيكية لقصص الحب، تذكرت ملاحظاتها الرصينة المباشرة عن الجزائر التي اكتشفت فيها بغبطة عالم الإسلام، تذكرت كاسار البربري الذي اتكأ على طرف السور بينما هبطت الشمس خلف جبال الكرستال وهو يفكر بصوفونيزب ..فتاة البحر.

*

كان علي تلك اللحظة أن أقف تحت مطر الربيع غير عابئ بالماء الذي أخذ يسيل على وجهي...أقف هناك تحت رذاذ آذار وأنظر إلى البلد الوعر والمشجر والذي يحده ساحل البحر مثل خط صلب من بعيد، يحده كما كان الريف يحد نوسيكو القديمة، وكانت الفنادق والمباني ذات الطرز الكولنيالية تظهر من مكان إلى آخر خلال هذه الدروب الضيقة المغطاة بخضرة متراصة ملتحمة بزرقة الصباح، وكان بهاء المدينة الناضج وثراؤها يحوطانني من كل مكان، وفي الطريق الذي يمتد إلى أوتيل الأوراسي المطل على المدينة من أعلى، كدت ألمس الطراوة التي تقطر ببطء وتتمدد في الهواء الشفاف.

هذا الأوراسي...الأوتيل ...الذي خاطب فيه ديغول الجزائريين وقال لهم:

"فهمتكم... je vous ai compris"

هذه الجزائر الحية التي أوحت لي مشاهدها التفكير بأرث عظيم كتبته أيد آسيوية في أفريقيا، بأرث عظيم مطمور في الجلد الأسمر



والملابس العربية التي تغطي أرضا كاملة من البحر إلى الصحراء، أوحت لي التفكير بكرم الرجال المحليين الذين أشبعونا ضيافة وفنطازيا، وكان علي أن أسأل الشوفير بالفرنسية فكلمني بعربية محلية عن خان القوافل الذي أنشأه العثمانيون والذي حل محل أفريقيا المسيحية، كان علي أن أصرخ بعد أن وطئت قدماي رصيف البحر:

"هذه الجزائر العظيمة.. هذه نكربول الأموات التي بشعتها الأخطاء المقدسة"..

وكان علي أن أصمت حيث يتوهج البحر المتوحش لوهلة، بينما يخرج الجزائريون بعنفهم وحركتهم البطيئة وأصواتهم العالية مختلفين عن المستعمرين الفرنسيين وعن أناتول فرانس...

هذه جزائر الجزائريين والتي لم تعد تشبه الجزائر الموجودة في روايات مغالي بوازنار، أو روايات أرواندو، أو برترون الذي كتب عن الماضي الحي الذي رقد طويلا في تلمسان أو قسنطينة..

هذه بليدة التي لم تعد تشبه بليدة التي كتب عنها ألفونس دوديه... وهذه تيباز التي أحبها ألبير كامو.

هذه الأسواق هي التي أوحت لي التفكير بالروح التي رقدت في المقاهي التي زارها مثقفون من كل أنحاء العالم، وبالكثير من الأبيض والأزرق والأخضر في شوارع الجزائر العاصمة وأزقتها وسلالمها، وبالأحمر الذي شغف به ديلاكروا، أوحت لي التفكير بأوتيلاتها حيث رقد كارل ماركس قبل قرنين في أوتيل السان جورج ليستشفي من برد أوربا، أوحت لي التفكير بتنويعات الصحراء السابحة في الضباب الخفيف، أو بوجوه النساء المختلطات المتكونات من أجناس المتوسط، أو بالرجال المتحمسين للحياة والمتمتعين بأهواء جامحة.



الصحفية نور الدين الغولي أوحت لي التفكير بالمغارة التي سجن فيها ميغيل سرفانتيس في الجزائر، حين خرج من صخب الحراس المحيطين به، ومن الإضاءة العالية، ودخل في المغارة وغط في سبات عميق.

سألتني أسئلة كثيرة ولم أعرف ما أجبتها ولكني كنت أفكر بسرفانتيس وبالممر المبلط أمامه وقد لفه سكون وعتمة رطبة، ومن نوافذ المغارة العالية المطلة على البحر ذي الزرقة الداكنة كزرقة الصباح، كانت حلقات الضوء تصعد من المياة القريبة فتحرك على القبب همسة خافتة..

كنت ألمح في المدى البعيد بابا عروج خلف شريط الأمواج الأبيض والرقيق، خلف الظلال المتكسرة على الجدران، بينما كانت تدفقات الضوء تتقاطع هنا وهناك على سطح الماء، لمحنا قراصنة ينامون في السكون المنبسط في الظلام على السطح العلوي للمركب الذي يرقد فوق موج مضطرب، وكنت أتسائل: بأي مضيق غامض كان الجنود الفرنسيون والإيطاليون والبرتغاليون يسيرون عبر الليالي الخالية حيث الضجيج الغامض يتصاعد من القصبة المطلة على البحر، حيث الكلام المبهم والإمارات المنسية التي يتلوها الشيخ أما الضباط الاستعماريين تؤكد اللمعان الشرقي للسجاد في القصور، والمصابيح المغطاة في الظل الشفاف.

قالت لي "إرحاب"، الجزائرية الجميلة التي التقيتها في قلعة بابا عروج:

"بعد الاستقلال حل الجزائريون -الشعب محل الإداريين الفرنسيين، والبرجوازيين المتحمسين والملاك المستعمرين الذين اجتاحوا الأرض".



جزائر الجزائريين

هذه الجزائر إذن...جزائر الجزائريين منذ بني مزغنة لا جزائر الإلزاسيين أو الإيطاليين والذين كانوا يشبهون مأدبة المرتزقة في سالامبو...هذه الجزائر الطالعة من البحر بعد أن اختفى الجنود الفرنسيون وأبطال روايات كتاب الأقدام السوداء، مثل: انجيل ميكو الصغيرة، وفنسنت فياغوس المتحمسة، وسانتا لازاريو، واليهودية نويمي، والحوذي بالتازار، وأنطونين الأعور القادم من بوردو...هذه جزائر الجزائريين بعد أن اختفى الجنود الاستعماريون وأرشيدوق العاصمة من القرى والضياع المعلقة على الجبال مثل أعشاش الصقور.

هذه الجزائر بعد أن اختفى التجار الصغار والمزارعون من الأبراج المسننة والأروقة المقوسة في القصبة القديمة، بعد أن اختفى المبشرون من منطقة القبائل بحقولها الوعرة، بعد أن اختفى اليهود من الأبيار ومنازلها ذات البياض الكامد دون بروزات دون تنوعات، وكل شيء يحيط بها غارق في صمت أبدي...سرنا في الطريق إلى القصبة، بمحاذاة البحر لنرى لوحات جديدة يشكل الديكور الاستعماري مجمل بنائها، المشاهد العظيمة للعاصمة النائمة تحت غلالة المطر، الأرض الخضراء البعيدة والتلال العالية التلوين، مشاهد ديلاكروا الحقيقية وهذا الأحمر الصافي الذي لا تراه إلا في الجزائر. وهنالك المجموع الضئيل المليء بالغموض، والألوان البيتورسكية الواضحة والصريحة.

*

حين سرنا في سوق ديدوش مراد اكتشفنا عالم الجزائريين الحي والصاخب والثري:



محيط شعبي جميل. .محيط مكون من خليط وجداني وحسي، وسيط طفولي، عواطف صاخبة وغيرمنتظمة، سرعان ما يثورون، وسرعان ما يصفحون...كنا نسير سعيدين وسط صخب الناس نستمتع بالنسمات المنعشة القادمة من البحر، نستمتع بحركات الباعة وهم يصرخون:

" بسنك ميل خوية ..كاتغ سن..فيان خوية فيان.."

خليط من الأصوات الفرنسية والعربية والأمازيغية في سوق واحد، خليط ينمو في الامتداد الصاخب والوحشي للسوق، ومن الجانب الآخر كانت البنايات الجميلة غارقة بضياء الشمس، حيث الأشجار الرائعة تغطي السلالم التي تقود إلى شارع فرانز فانون، والأزياء الفاقعة الألوان تختلط بالغامض والفاتن من السوق، حيث الحدائق الرائعة متدفقة بالماء، ومن الأعلى كانت المدينة ترقص وسط سيرك من الألوان الملتهبة، وقد حلقت الطيور في سماء من ذهب.



-III-

القصبة القديمة ومدافع بابا عروج

كنت أبحث عن القلعة القديمة، عن مدفع بابا عروج الذي يستقبل بدخانه وباروده سفن البرتغاليين، عن النساء المغتصبات، عن الرجال الجائعين، وأقبية التعذيب حيث تئن النساء المخطوفات والرجال المتمردون الذين رفعوا على الخوازيق أو شنقوا وعلقوا على الرفوش، كنت أبحث عن القراصنة الساهرين وهم يدقون الطبول وسط البحر، عن المرأة التي كانت تبيع الغلايين المحلاة بالقنازع والتي رآها برترون في القصبة قبل قرن تقريبا ، كنت أبحث عن باعة التوابل والأفاويه في البورت نف. غير أن مدينة البحر تغيرت كثيرا عن الوصف البيتورسكي الذي حبره الرحالة والمغامرون والجنود والحجاج والمستشرقون الأوربيون، ولم يعد هناك أرشيدوق الجزائر، ولا الجنرال شارل دوفوكو الذي كان ينصّر القبائليين حتى قتله أحد الشبان الجزائريين في الكهف، ولا بسيشاري الذي كان يدعو للسلاح، ولا جنود المهاري الذين يبحثون عن اللغز الصحراوي العظيم المصنوع من فكرة الموت وعظمة الصمت في الهضاب المترامية الأطراف، ولا بيير لوتي الذي أحب واحات النخيل خلف جبال بليدة، وأحب المهاري والسراب الذي دوخ الرحالة في صحراء الرمال، وكره



البارود الذي هدده به رجال الطوارق، ولا ماسنيون الذي آمن بالرجال الذين رتلوا الصلاة على الأرض الصوفية أرض الزهد والتنسك، وراقب الذين غادروا الجبل وطاردوا الحيوانات الضارية خلف الرمال الممتدة، ولا بيير كامو الذي كان يتأمل الصمت الأبدي في الصحراء، النقيض المباشر للعالم الذي خلفه وراءه، العالم الذي لم يعد يصغ إلى صانعه...وفي القلعة لم يعد هناك بابا عروج يغوص في ظلام البحر مفتونا بعزلته يجلس والشبوق في فمه ونظراته الداكنة منشغلة بالسفن والغنائم.

*

"السوق التجاري العظيم كان هنا.." تشير الخارطة القديمة قبل أن يهدم الفرنسيون القصبة المحيطة بالقلعة، الشوارع الملتفة على بعضها مثل ربطة الخيوط، كأنما شحذت عشرون قطة أضافرها بمزاج مرتاح كما وصفها تيوفييل غوتيية...هذه المدينة التي تمتزج فيها اللهجات والأزياء والبرانص والتي تشبه الكانبير نسبة للمارسيليين، والبتاوين نسبة للبغداديين، لاباتراد لسرول للإسبانيين، وهنالك المصنوعات الخشبية المطعمة بالعنبر، وقوارير الورد ، والبابوجات الكثيرة، والسجاجيد الثقيلة، وكل شيء قديم.

هذه الشوارع التي شهدت انكسار شارل الخامس أمام حسن أغا في باب عزون، شهدت قصص العشاق في باب الوادي، منازل الآرستقراطيين الأتراك في وادي البحرية، ومن عمق البحر يلوح على الضفة حي القصبة الذي وطنه الأنكشاريون والدايات، وقصبة العرب حيث يتجاور فيها سوق السردين القريب من باب الديوانة مع سوق اللوح القريب من باب عزون. كانت هناك مقاهي القصبة الجميلة التي زارها تيوفيل غوتييه في



القرن التاسع عشر حيث جلس على حصيرة بالقرب من رجل قوي بوجه شاحب، وقد جلب له الصبي الجزائري الوسيم القهوة اللاذعة بكوب من الخزف، وجاء له بالغليون المحشو بتبغ عذب للغاية.

إنها فسحة الراحة المزدحمة بحشد من رجال يرتدون المعاطف والخرق ويحتسون الشاي والقهوة منطرحين على المنصة المكسوة بالحصيرة التي تستخدم للجلوس والنوم، وجوه الزهاد الشاحبة في برانصهم، العيون السود الواسعة، والجفون الثقيلة والمبتسمة، وتضيف الأردية التركية إلى هذه الأجواء الرمادية بقعا براقة من الأزرق السماوي.

كنت أبحث عن مقهى سيدي محمد في ساحة آرم في الجزائر العاصمة، وأراه كما رآه الرحالة الأوربيون في القرن التاسع عشر، كما كان بفانوسه المسود وبابه الخشبية المنخفضة، كما رآه الرحالة الأوربيون بتذهيباته التركية العديدة والمرسومة فوق العتبة، حيث يدخن الجزائريون هناك التبغ ممزوجا بالأفيون، ويشربون القهوة المرة بالفناجين، كنت أعاين المكان لأرى صاحب المقهى وهو يتحرك رواحا ومجيئا حول موقده الصغير المصنوع من الخزف وسط بريق المينا والأكواب الصغيرة العديدة، بينما جلس الأوربي على الدكة، وقد خدره الأفيون حتى سقط بوق النارجيلة من يده بحركة متعبة، وكانت عيناه جامدتين مصوبتين نحو السقف.

إنها القصبة المتوحشة والتي تشع حرارة أمام الرياح الباردة التي تهب من البحر...إنها القصبة..التي ذكرها أنوروه دي بلزاك في قصة سارازين، والتي كانت سوقا تجاريا عظيما حيث ارتادها الملاحون المسلمون وتجار النصارى بأساطيلهم القادمة من البندقية وفلورنسا، ولجأ إليها المهاجرون الأندلسيون واليهود الشماليون بعد أن استولى بدرونفارو



واكسمينس على وهران وبجاية، فجاءها بابا عروج من جيجل ليقتل سليم التومي في الحمام هو ورمضان شاوش ويجلس على عرش الجزائر.

*

وقفت هناك على المدفع العثماني القديم، على المدفع الذي نصبه بابا عروج في القلعة القديمة أمام البحر ليصد به سفن الأوربيين عن القصبة، وكان القمر يرسم بشعاعه الأصفر على البحر الساكن شريطا طويلا مذهبا، ويلقي ظلا أسود على اللسان الرملي الضيق، وكان سواد البحر في الليل يلمع كشريط طويل من الفرو الغامق. لقد تبعت بوله انعكاسات ضوء القمر على البحر في السكون الذي يتزايد بعمق... تبعته من هذه الكوى الصغيرة التي كان يشغلها رجال بابا عروج وحراسه، من هذه الكوى التي كان يحميها رجال القناصة الحليقو الرؤوس، والملفعون بالبياض.

كنت أتخيلهم هناك وقد أضاءت محياهم ابتسامة هادئة جملتها أسنانهم الناصعة، واستبشرت وجوههم المليحة تحت العمائم المحمدية البيضاء، كنت أتخيلهم وهم يتوزعون بفرح على الأبواب والكوى والشبابيك وهم يحملون سيوفهم المعقوفة وخناجرهم القصيرة الأنصال، وحين يخرجون من القلعة فإنهم يتجهون نحو القصبة بالتأكيد، يمرون من باب عزون مخترقين سوق الحوت بروائحه الضارية كي يلجوا المساجد بهيئاتهم الصارمة، كنت أتخيلهم حين يقفون لحظة أمام باعة البرتقال والعناب والتين البري ليشتروا الفواكه الطازجة ومن ثم يدخلون القلعة، حيث يتحرك لابسو البرانص داخل كومة متشابكة لا توصف من الأذرع والأقدام العارية.



-IV-

رحلة صغيرة في جزائر الليل
أنا ونوري الجراح وأبو بكر زمال

كان الليل خارج القلعة مبللا بنسمات هوائية باردة، وثمة سواد شفاف يرشح من البحر، لم يعد يصل إلينا صخب الأمواج إلا كحفيف مخنوق ونحن نسير في شوارع الجزائر التي تتمدد وتشابك بموازاة رصيف البحر. كنا الثلاثة (نوري الجراح الذي زار الجزائر في العام ١٩٩٨ ليكتب كتابه الفردوس الدامي، وأبو بكر زمال الشاعر الجزائري الذي رافق نوري في رحلته أوانذاك، وأنا)، كنا نسير في الراحة الصامتة لليل حول المضيق الصاعد الذي باغتنا، من شارع القلعة في القصبة إلى الساحة الكبيرة أمام مبنى البوصطة القديم بريازته الإسلامية المميزة وحتى شارع ديدوش مراد، كانت السماء في منتهى الصفاء تميل إلى الزرقة القاتمة، وكنا نلاحق المدينة حيث يغور الضوء في المباني التي تتلاحق أمامنا، كنا نسير مستعيدين على صوت نوري الجراح أيام الإرهاب الدامية.

*

نوري الجراح هناك..يرتحل في القطارات الليلية ويعبر طريق الموت الذي يصل الجزائر العاصمة بولايات الشرق في السهل المتيجي الشائك،



متخفيا بسحنته الشبيهة بسحنات الجزائريين المتمدنين من بنادق الإسلام المسلح وخناجرهم التكفيرية الباشطة، ومنفلتا من الحماية الحكومية المسلحة التي تراقب تحركاته واتصالاته...من الذي يقتل؟ هذا هو السؤال الغامض، هذا هو السؤال الملغز والمحير الذي طرحه نوري الجراح على كل من رآه، هذا هو السؤال الذي دخل من أجله في الظلام الدامس، وفي أقبية المدن الغامضة، وسار مع الشاعر الجزائري أبو بكر زمال رفيق رحلته في الشوارع الخلفية التي كانت تعصف بها قوى المرتزقة والأسلحة المريبة، حيث اختلطت هناك هوية القتلة بهوية الضحايا ، واختلطت البنادق الرسمية ببنادق الارهابيين، واختلطت المصالح الإقليمية بالمصالح الاستعمارية.

هذا هو السؤال الذي طرحه أول مثقف عربي يصل الجزائر أيام محنة العنف الدموي، وفي ذروة الصراع المسلح الذي ذهب ضحيته الصحفيون والمثقفون، وبرحلة غرائبية تصل إلى حد المغامرة المتطرفة، إذ لم يصل الجزائر إبان ذاك غير خوان غوتسيلو وبرنار هنري ليفي وغلوكسمان من الأوربيين، هذا هو السؤال الذي دون نوري الجراح كتابه من أجله، ودون رحلته المغامرة على مدار شهر كامل تقريبا أمضاها في المدن التي عصف بها زلزال الموت والدمار ، متنقلا في جولات متتابعة برفقة الشاعر أبو بكر زمال الذي عبر معه في القطارات الليلية التي تنقل الجنود والفقراء والعمال والفلاحين، ليلتقي هناك بالمثقفين ويجعلهم يتكلمون بأنفسهم عن الوضع التراجيدي الذي مرت به البلاد دون وسيط.

سرنا في شوارع الجزائر في الليل حيث تغلق الدكاكين والمحال والبوتيكات والمطاعم أبوابها ، ويتسرب أخر السابلة إلى المنازل، ولم



يتبق في المدينة غير الذاهبين إلى الخمارات أو السائرين إلى منازلهم مخترقين المزابل التي خلفتها الأسواق العشوائية في شارع ديدوش مراد، وقد أخذ نوري الجراح يسرد ذكريات رحلته القديمة ونحن نسير في المكان ذاته الذي جعله مكانا لمواعيد رحلته السابقة، ديدوش مراد:

مبنى اتحاد الكتاب، ساحة أودان وينتهي بنفق جامعة يوسف بن خدة، آخر ما بناه المستعمرون الفرنسيون قبل جلائهم، وبعد ذلك بئر خادم الذي أقام فيه في منزل صديقه عدلي صادق، ثم المرور في الأبيار وحيدرة حيث يقطن الأثرياء والضباط والوزراء والديبلوماسيون، ومن هناك كان يرقب الصراع المسلح في حي القصبة، وسيرورة الحياة اليومية في الحامة العليا أو في القبة أو في بئر مراد.

كنا نسير على صوت ارتطام البراميل على الأرض أو على صوت النوارس التي تطلق صيحاتها قريبا من البحر، وكان الأفق يغيب شيئا فشيئا ونحن نمر في الطرقات الملتفة من شارع محمد الخامس مرورا بمبنى البريد ذي الريازة الإسلامية المميزة إلى المسرح البلدي الذي وقفت أمامه فرقة موسيقية تطلق ألحانها الشعبية الجميلة في الليل الساحر، ثم دخلنا أحد البارات الذي يشبه البارات الفرنسية وعلى صوت الكؤوس وأصوات السكارى وأصوات النادل وصوت ارتطام الكراسي بالطاولات والضحك والكركرات والمسامرات واصل نوري الجراح سرد ذكرياته عن المثقفين الجزائريين الذين التقى بهم أيام المذبحة، أحاديثهم لقاءاتهم أفكارهم همومهم حياتهم ومعاناتهم تحت الإرهاب والإهمال، وعلى الصوت الموحش للقطار الليلي الذي عبر به جبل بوزريعة المعتم، حتى الوصول إلى قسنطينة في الفجر عبر جسر معلق، أو الدخول الخطر إلى القصبة



في الصباح قبل يوم العيد، مجاورا في مسيره رجلا يجر خروفا ليدخل زقاقا بالغ الضيق غير أن الجادة تنتهي بحائط مسدود.

... "مغامرة مجنونة" قلت له.

مغامرة أشبه بالدخول في لعبة المتاهة للوصول عبر طرق ملتفة ومقطوعة، مغامرة المرور في مدينة لا يجرؤ أحد الدخول إليها منذ الفرنسيين.

أو مغامرة المرور في جغرافية القتل عبر السهل المتيجي، الوصول إلى مدن الشرق العاصفة، الجلوس برفقة شعراء الاختلاف، أغاني الراي، هموم المثقف، هموم الحياة، ثقل الحياة السياسية وانسدادها، غياب الآفاق، وسيف الإرهاب الذي ذبح أكثر المثقفين توهجا.

*

كان الشك العائم تقطعه فترات صحو خفيفة. أما الكؤوس فقد كانت ترتفع بلطف على رائحة التخمير الرائعة والمنعشة، امرأة ترتدي معطفا عتيقا تقف عند البار الخشبي تشرب كأسها وتتبادل النكات مع النادل، ورجل يرتدي قبعة يجلس بصمت وهو ينظر إلى النافذة. ولم يبق من نور الشارع إلا خط ضئيل يضعف كلما توهجت النجوم في السماء الشاحبة. كان البرد يتصاعد من باب البار المفتوح والذي يخفف علينا رائحة التخمر الثقيلة، ومن الزجاجة العريضة كنا نراقب شارع ديدوش مراد الصاخب ليلا، الشارع الذي ينتصب وحده متوجا بالحياة الموارة والمصطخبة، ومتوجا بالبارات والمتسكعين والمشردين وباعة المفرق والسابلة والحيطيست والمغامرين الصغار والعاهرات والسكارى والمثقفين والطلاب والعمال والمخبرين..ومن يدري ربما بالإرهابيين المتنكرين أيضا.

*



مررنا بالنصب الإسمنتي الكبير وسط المدينة، ثم صعدنا الطريق العالي والذي يلتف من شارع فرانز فانون والمكتبة الوطنية ليصل إلى فندق الأوراسي...كان الحديث ممتعا عن أدباء الجزائر المعاصرين الذين تحدث معهم أو التقى بهم نوري الجراح في رحلته: واسيني الأعرج، الطاهر وطار، آسيا موساي، حميدة عياشي، بشير المفتي، مرزاق بقطاش، حرز الله بو زيد، نصيرة محمدي، وتحدثنا عن أشياء كثيرة تناولها كتابه أيضا: الثقافة المشرقية والمغربية، الثقافة المعربة والفرانكفونية، المعربين والفرانكوفيل، التعددية الثقافية والاستقطاب الثقافي، كهف سرفانتيس الذي تحول إلى مزبلة، وسراويل التماثيل في الحديقة العائلية.

صعدنا في الطريق الممتد إلى أعلى وكان البحر يومض بالمصابيح المعلقة أعلى المراكب، شيء مدهش بتهدجاته وانتفاضاته الكبيرة. كل شيء متوهج مثلما ما كان في الزمن القديم: التضاريس العظيمة التي تمتد مثل صور فوتوغرافية قديمة، المنحدرات الكبيرة والواسعة والظلال المضيئة التي تنطلق نحو الرصيف، البهاء الخلاب والمدهش للمباني التي نتسلق نحوها عبر درجات مظللة بالأشجار، النيران العظيمة الموقودة خلف المنازل البعيدة، وهنالك صورة البطولات الضارية التي تتحرك أمام الارتعاشات الأولى للمساء.

كنا ننتعش بهذا الحديث على صوت كلاكسات السيارات التي تمر بسرعة وعلى الهياكل المرصعة بالذهب، والحلبات القديمة السبك، وأعشاش الطيور المعلقة على الشجر الضخم الذي يظلل الشوارع. كنا نسير على هذه الشوارع التي غطتها في يوم ما الأضحيات والقرابين، هذه الأرض المزينة بالعناقيد وتحت كل هدب من أهدابها الذهبية رأينا أحلام الناس وقد ذهبت إلى البحر البعيد والغامض.



-٧-

بليدة ورحلة إلى الجبل

بليدة... إنه المكان الأقل صخبا والأكثر بيتوريسكية في العالم منذ مارميه، إنه المكان الذي يمكنك أن تصطاد فيه النساء الشهوانيات بلا سنارة، المكان الذي تستسلم فيه للجمال وتقرأه مثل كتاب مفتوح، غير أنه غامض ووقور وأزلي أيضا، وشعبي جدا بقذارة شوارعه وضجيج أسواقه، وربما مازال البائع الذي التقاه مارميه نائما حتى اليوم بعينيه الجامدتين المنتشيتين وغليونه في فمه، وربما مازلت إحدى قدميه حتى الآن منتعلة والأخرى حافية!

انطلقت رحلتنا في الطريق الطويل الذي يلتف بعيدا عن البحر، انطلقت رحلتنا في الصباح المشرق نحو المكان الخرافي القديم، نحو المكان الغامض الذي يحوي شيئا من السحر والأعاجيب كما رآه سترابون أول مرة قبل مئة عام تقريبا، رآه بنعاماته الهاربات وغزلانه الشائهات في الهواء، وبإبسيلاته التي لها لعاب يشفي لدغة الثعابين.

رأيناه وقد غادره الاستيطان القديم، وأزال عن نفسه آثار الاجتياح الفرنسي الذي كبله من يديه، ولم نجد المكان الذي أوحى لسالاكرو رواية فندق الأطلس والتي قرأتها قبل أعوام في بغداد، ولا رواية علي الثعلب



لأوسيب دو سال، ولا تلك الفكرة الاستعلائية والتمثيلية دون حدود والتي كان يحملها الفرنسيون عن العرب.

*

بليدة...كان هذا الإسم وحده كافيا ليطلق خيالي على لوفيلوس ومارميه في فتح ستاولي والوجه العظيم للقديس أوغسطين.

بليدة...كان هذا الإسم وحده كافيا أن أربطه بأسماء أخرى مثل مستغانم، ووهران، وقسنطينة التي حافظت بشكل كبير على لونها المحلي، كان كافيا أن يطلق خيالي لأرى النساء الجزائريات وزينتهن وغنجهن وهن يرقصن على الدرابك في صحن الدار الذي يضيئه الفانوس، كان كافيا أن يطلق خيالي لأرى الأوضاع المخدرة التي تضج على الموسيقى فيصعد كل ما هو غريب وقدري ومقدس، وأن أشم رائحة المقاهي والحياة الفظة القاسية لرجال الفيالق والكتائب المحتلة والتي عانت من ضربات المقاومين، وأن أتحسس بيدي تنافر الألوان والمجازر السابحة بالدم، وحين ألتفت إلى وراء أرى الجزائر العاصمة هناك... جاثمة من بعيد على الجبل الأبيض... هادئة مثل وكر الصقور.

*

كنا نصعد نحو الشريعة بدورات ملتفة بطيئة. والنساء يحملن الطناجر الفخارية ويصعدن على الطريق الأخضر المسور بأشجار الأرز، هناك في المرتفع العالي كان سطح الجبل أخضر داكنا بامتداده الغامض، وتنوعه المذهل والملتف مثل وردة هيرمون. هذه التموجات الأرضية التي كنا نصعدها سارت عليها قوافل المسلمين منذ ألف عام، هذه الصخور هي ذاتها التي ظللتها الأشجار المتنوعة، الأشجار التي لا تفقد أوراقها



أبدا، وسورتها أشجار أخرى بجذوع معقودة وتفرعات عصية متشابكة وأوراق ساكنة معتمة.

قبل أن نصل إلى الشريعة البيضاء والتي يغطيها الثلج صيفا وشتاء توقفنا. فمسكت بيدي أوراق الأشجار الخضراء المدورة الدبقة، والتي كانت تكسو الحجر، وكانت الصخور تخترق الأرض بطبقات متعددة، طبقات رمادية تميل إلى الزرقة الباهتة، وتبرز من بعيد مثل عضلات متينة لهيكل بشري، وهنالك صخور أخرى تتمفصل على الأرض الحجرية متأهبة لاختراق التراب الذي يغطيها، بينما كانت الطبقات والكتل الصخرية السوداء الباهتة والهشة والعميقة تنحدر نحو الأسفل.

*

انذهلت.. أول وصولنا إلى الشريعة. انذهلت عند وصولنا إلى هذا السن الصخري الناتيء والمغطى بالثلج والضباب والغيوم الكثيفة، انذهلت بعد أن رشتنا عاصفة بيضاء من الثلج مفاجئة، وغطتنا بنديفها المدور من رؤوسنا حتى أقدامنا، كنا نسير فوق الثلج بصعوبة لنصل إلى نيران موقدة على مقربة من شجرة ضخمة معمرة، وقد لسعت أقدامنا ووجوهنا وأجسادنا رطوبة قارسة، منعشةً إيانا كما لو كانت رشفة من نبيذ لاسع فواح، كان الضباب يغطي كل شيء، والغيم يحجب الرؤيا تقريبا، وكنا نسير وسط الغيمة ذاتها التي تمطر أسفلنا، وراحت أشجار المرتفع المتجلدة من البرد تصفر في الأعلى، وأخذت القناديل المكفهرة ترتجف على الأعمدة بسبب تيارات الشارع الهوائية الباردة.

كنا نسير متكئين على بعضنا (أنا ومحمد ظريف ومنذر العقيلي)



معا، نميل يمينا ثم نميل شمالا متزحلقين على الثلج، أو متكومين على بعضنا.

كنا نتابع سيرنا باهتزاز افقي على أثر أصدقائنا الذين سبقونا، والذين مروا قبلنا في هذا الطريق الملتف والذي يقود إلى مبنى علمي مختص بالحيوانات المنقرضة، وفي الطريق تنشقنا رائحة الثلج، رائحة برد السهوب النائية، لقد تنشقنا ذلك اليوم طراوة البرد القديم وكأنه موجود هنا منذ ألف عام، استنشقنا رطوبته المنتشرة بعمق في المكان، وشقينا الغيوم التي غطت الأبنية الغارقة في الغشاوة المتحركة، كنا نسير باحثين عن ضوء نافذة، أو عن باب قريب، وكنا ندرك بأننا نعيش بعد ذهاب الشتاء زمن عاصفة ريفية نادرة، ونتنشق رائحة بلل ليلة شتوية أصيلة، كنا نشم هذه الرائحة الفواحة المتكونة من الماء الذائب والشجر المتفسخ بقلق على ذلك البعيد الغامض، على ذلك الشيء الطفولي أبداً، والذاهب بغير رجعة، أو ذلك الشيء الأسطوري الذي يباغتنا على نحو مفاجيء ويجعلنا متسمرين من المتعة.

*

لقد جذبنا ذلك اليوم شيء أسطوري مفاجئ إلى هذا المكان العالي، إلى هذا المكان البعيد الغائم، لقد جذبنا شيء غامض إلى أزقته الصغيرة الملتوية والمغطاة بالثلج، إلى أشجاره الغريبة المثيرة للذكريات، وجذوعه المسننة المعمرة، لقد جذبنا شيء ملغز إلى مبانيه الصغيرة شبه المهدمة، والمهجورة تقريبا، والتي يمكنك أن ترى من خلف أسيجتها الواطئة الغرف ذات الأقواس الحجرية المشيدة فوق الأبواب، وخلف الغيم والضباب يمكنك أن ترى الأفنية الصغيرة ذات العنابر، وأبراج الدجاج، والكراسي



المغروزة في الثلج، والمصفوفة تحت أشجار الأرز المعمرة، هذه الأفنية لا تقل سحرا عن الأماكن الأسطورية أبدا.

*

لقد عشنا تحت هذه الغيمة الثلجية العذبة شلالا من الذكريات التي لا تنسى أبدا، يا لها من براعة ذلك الديكور الأبيض، ذلك البياض الناصع الذي أخذ يغطي كل شيء تقريبا، كل شيء يحيط بنا في هذا المكان النائي.

يا لها من روعة تتجسد ذلك اليوم في هذا السرو المزرق والأرز الضخم، يا له من فردوس في ذلك الريف الصاخب الذي يبرز تحت البياض عبر تعارضات الضوء والظل، شيء لا يشبه الطقس السيئ في الليالي الشتوية أبدا، لكنك تشعر وأنت تنتعش تحت رطوبة الثلج القارسة بطراوة الهواء القروية، الشوارع التي تتفتح فيها أشجار الأرز العالية، والنديف الأبيض الذي لا يهدأ وهو يطير في الهواء فيفرش الأرصفة بطبقات بيضاء ويتراكم في الأركان التي لا تصلها الرياح قرب المداخل، ويلتصق بطبقة رقيقة على زجاج النوافذ.



-VI-

كامو والجزائر

يوم الجمعة سرت في الطرقات الجزائرية الملتفة أبحث عن أغاني الراي الجزائرية، وبعض الأصوات الجزائرية التي تغني بالعربية، وكذلك كنت أبحث عن بعض الأشرطة الفرنسية لأشتريها.

كان الرجل الكبير السن الذي وضع على رأسه قبعة طويلة يجلس على قارعة الطريق ويضع على الأرض مجموعة كبيرة من الأشرطة والإسطوانات تحمل صور أديث بياف، وشارلز آزنافور، وجاك بريل، وموستاكي، وغيرهم، وأخذت أشتري منه بعض الأشرطة وهو ينصحني بأخذ هذا وترك ذاك، وعند حافة الكيس الذي يحمله كان هنالك كتاب بالفرنسية يحمل عنوانا مثيرا للغاية، على الأقل نسبة لي: " ألبير كامو في الجزائر.."...فسألته إن كان يبيع هذا الكتاب، قال لا إنه كتابه الذي يقرأ به دائما، وسألني السؤال الدائم:

"أنت جزائري.. ؟"

"لا ..أنا عراقي"

فقال بصورة حميمية "tu et irakienìalors on est cousin".. أنت عراقي إذن نحن أبناء عم.. ثم تكلم معي بالعربية... وقدم لي كتابه المفضل كهدية.



جزائر ألبير كامو هي غير جزائر الجزائريين بالضرورة، مهما كان الحب السري الذي تحدث عنه كامو، أو إدانته المبطنة للإستعمار الفرنسي للجزائر، أو إدانته للمقاومة الجزائرية، أو الصورة التنميطية التي كتب بها عن الجزائر بوصفه الوهج الباقي من الامبراطورية الامبريالية المتأخرة...جزائر ألبير كامو تأتي من تقاليد مصادرة فرنسا للجزائر لا من الجزائر، من الإنشاء الأكثر فصاحة والذي يطلق في الطاعون أو الغريب معاينة تقليصية للجزائريين الأصلانيين إلى أبعد حد ممكن، دون استحضار حقيقي للعنف الذي مارسه الفرنسيون هناك، يأتي من مرسو، أو من ريو، أو من الاحتفالات التذكارية للسكان البيض، أو من المراسيم المعقدة إلى درجة آسرة.

ربما وصلت في طريقي مرة إلى المكان الذي ضرب فيه كامو موعدا مع ماكس فوشيه، لمناقشة موضوع الفتاة التي كانا يغازلانها، على الشاطيء المفروش بالحصى وبمحاذاته المزراب القذرة كما روى هذه الحادثة جول روا بعد خمسين عاما تقريبا، ربما وصلت إلى حي بلكور -بلوزداد حاليا- حيث قضى كامو طفولته، الحي الذي صوره في كتابه المحيط والمكان، شارع ليون الذي كان فيه منزله، وربما سرت على الطريق ذاتها التي سار فيها متظللا بأشجار اليوكالبتوس العملاقة التي تطرد البعوض وهو في طريقه إلى مدرسة بيجو التي تحولت اليوم إلى مدرسة عبد القادر الجزائري، سرت على الطرقات ذاتها وأنا أشهد الحقارة mepris التي صارع الجزائريون ضدها، صارعوا ضد مرتكبيها ضدهم وقد عكسوها اليوم على كل ذلك الأرث الاستعماري الذي جاء جول روا بعد خمسين عاما ليعيده في ذكرياته عن الجزائر التي ولد فيها وعاش فيها في منزل زوج والدته، الدركي المحارب القديم.



وفرحت كثيرا لأن مفتاح خادم زوج أم روا في سيدي موسى، لم يعد يجلب الماء في مزرعة الكولون، ولا يكنس الساحة، ولا يغسل عجلات العربة، ولا يربط الحصان، ولا يقدم الأكل للكلاب، ولا يحمل البطاطا على ظهره، ولا ينظف الاسطبل، ولا يحلب البقرات، ولا يسقي أشجار برتقالاتهم، ولا يذهب إلى البئر ليملأ قربة كبيرة ليضعها في مطبخ الكولون، ولا يجمع روث البقر ليسمد به الحديقة، ولم تعد زوجته زهرة تحضر لهم الكسكسي وتغسل ثياب السادة وتكويها...مفتاح اليوم هو السيد وزهرة اليوم هي السيدة، وعلى الكولون القديم جول روا أن يقدم احترامه قبل أن يدخل المزرعة.

*

حينما كنت أسير في شوارع الجزائر لم أشهد حقيقة هذه المدينة التي كانت مصورة على نحو فعال ومبالغ به في روايات كامو. لقد أجلت عن نفسها الصدأ الذي علقها وبرزت في شكلها وروحها وهويتها الأصلية. هؤلاء الناس الطيبون الذين يبحثون عن الخبز الصعب في يوم ضار، المدينة التي لا تشبه باريس ولا براغ ولا فلورنسا، المدن المنغلقة على نفسها كما سماها كامو نفسه، إنما الجزائر التي تنفتح في السماء مثل فم او جرح، كما قال كامو أيضا.. الجفاف الذي يحدثه الافراط، البلد الفريد الذي يهب الانسان ما يقدمه له أبناؤه الأكثر بؤسا والأكثر فاقة، الشباب الدائم، ملجأ الانتصارات الفذة، والمزحة التي يطلقها بائع البطيخ حين يجر عربته الفارغة فيصيح بالصبايا الجميلات اللاتي يصادفنه: (اتصعدين يا حبيبتي)...لقد رحل الفرنسيون ولم يعد يوم الأحد كئيبا وبشعا مثل مقبرة برو، ولم تعد هنالك اكداس الذوق الفاسد



التي تكشف عن كآبة رهيبة وعن تمرد ، وعن موت حقيقي، وعن حقد أسود ، هذا الحقد الذي رفض كامو المشاركة فيه.

*

مات كامو ورحل شارل تايار وجول روا وبقيت الأرض الموعودة التي شهدت تضاريسها وشمسها المحرقة الدافئة حفلاتهم، ولم يعد ساحل البحر الموغل في توحشه أو ظهر السهوب المترامية مكانا لقضاء إجازاتهم أو محطات للسعادة التي تركتها لهم غنيمة المغامرين والقراصنة من أجدادهم. هذه الجزائر التي مر بها هؤلاء واشتركوا بتلك العنصرية الشرسة تجاه الناس المحليين والأصلانيين، لم تكن يوما كما حلموا بها أو أرادوها: الجزائر الدائرة في الفلك اللاتيني، أو الجزائر البربرية التي تعود رغما عنها إلى أصولها اللاتينية المسيحية، أو كما حلم بها أوديسيو جزائر أفريقيا الشمالية ذات البعد المتوسطي والطابع اللاتيني...إنما جزائر الجزائر التي حلم بها الجزائريون أهل البلاد الحقيقيون، أو الجزائريون الذين ولدوا بها وحلموا بها مثل جان سيناك الذي سمى نفسه "يحيى الوهراني" ، فولادته الجزائرية اخترقت سديم الفلك لحبه وتركته عاريا -كما كتب في روايته مسودة الأب- وجعلت منه أداة استفهام لطلائع المتشككين من الرجال بالضد من الذين حملوا في سياراتهم ريع الوطن ليقاتلوا به أهل الوطن الحقيقيين...لقد كتب سيناك أيام حرب التحرير أيام وقع الأسماء، وبريق البنادق، بأن في الجزائر ضحايا يسقطون من أجل الجزائر، وسجل وقائعه الحربية جنبا إلى جنب محمد ديب وكاتب ياسين واسماعيل آيت جعفر ومصطفى الأشرف.



-VII-

دخلنا (أنا والكاتب التونسي علي مصباح) مكتبة كبيرة قريبة من ساحة أودان المحاذية لشارع ديدوش مراد في الجزائر العاصمة، كانت المجلة التي تحمل صورة الروائي رشيد بوجدرة واضحة وموضوعة في زاوية على الرف، وقد صرح بأن المستقبل الأكيد هو للرواية العربية في الجزائر وليس للرواية الفرنسية...على مقربة من المجلة المركونة في الزاوية البعيدة كانت الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية من الكتاب الجزائريين كثيرة وتغطي الرفوف تقريبا، وكانت صور الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية معلقة على الجدران مثل كاتب ياسين ومولود معمري ومولود فرعون وآسيا جبار والطاهر جعوط وغيرهم، دون أن تكون أية صورة للكتاب الذين يكتبون باللغة العربية.

سألت البائعة التي تتكلم الفرنسية بطلاقة عن بعض الكتب الحديثة، والإصدارات الجديدة وإمكانية الحصول عليها، وقلبت كتبا أخرى: أطالس، قواميس، موسوعات أدبية، روايات، دواوين شعرية، كتبا سياسية، وسوفونيرات عن الجزائر، ورحلات استشراقية، وألبومات للفنانين الفرنسيين الذين مروا بالجزائر، ومذكرات سياسيين، وكتب عن الثورة والاستقلال، وأخرى عن الارهاب، وهنالك كتب مترجمة من الفرنسية إلى اللغة العربية وبعض الروايات ترجمت من العربية الى

الفرنسية، وهنالك دراسات مهمة في النقد الأدبي، والاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، وقائمة طويلة تبين بصورة لا بأس بها التنوع المذهل في الثقافة الجزائرية وتطورها.

وهنالك كتب كثيرة لجزائريين يكتبون باللغة الفرنسية...ولأني أجهل أكثر الأسماء الحديثة الموضوعة على الكتب طلبت منها أن ترشح لي أكثر الأسماء شعبية وانتشارا بين القراء لأشتريها...فجمعت لي روايات كتاب عديدين أصدروا رواياتهم في فرنسا أو في دور نشر محلية في الجزائر تطبع كتبها باللغة الفرنسية، منهم: ياسمينة خضرة، رشيد ميموني، الطاهر جعوط، صادق عيسات، حبيب أيوب، سفيان حجاج، علي مالك، أمين الزاوي..وغيرهم...وبعض هؤلاء يكتب باللغتين العربية والفرنسية.

طبعا ذهب زمن الرواية الإكزوتية الجزائرية والتي كتبها كتاب جزائريون مولعون بالطريقة الفرنسية في النظر إلى الجزائر، مثل: رواية "زهرة" لحاج حمو عبد القادر، و"رقصة أولاد نايل" لسليمان بن براهيم وديني، ورواية "العلج" لشكري خوجة، و"مريم في واحة النخيل" للشيخ محمد، و"هند" لآسيا زهار، و"ياقوة سوداء" لعمرون ماري لويز، و"ليلى شابة جزائرية" لدباس جميلة، ورواية "إدريس" لعلي التهامي، ورواية "السباق وراء النجمة" لحمري الطيب وغيرها الكثير..ممن قرأتهن في بغداد قبل أكثر من عشر سنوات.

*

الجزائر ضحية الاجتثاث الثقافي بشكل ملفت، بل إن الصراع بين التعريب والفرانكفونية بلغ أكثر الأحيان موقع الصراع الدامي، هنالك



قتال حقيقي، والكثير من الناس فقدوا حياتهم بسبب هاتين البنيتين المتفارقتين البنية المعربة والبنية الفرانكفونية والتي تحتل الإدارة والتعليم، وإن كانت فرنسا تبنت كعادتها ودعمت البنية الفرانكفونية في الجزائر فإن المعربين كانوا هم ضحايا العنف والإهمال والتهميش حتى من قبلنا نحن المثقفين في العالم العربي، بل كان اهتمامنا منصبا-طالما الموضة تأتينا من فرنسا- على الكتاب الذي يكتبون باللغة الفرنسية وهكذا نترجم لهم كتبهم ونوليهم الاهتمام الفائض.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتبة لاتيير موند القريبة من الجامعة واشتريت روايات وكتب لكتاب يكتبون باللغة العربية، مثل حميدة عياشي، وبشير مفتي، مراد بكرزازا، فضلا عن كتاب آخرين كانوا مشهورين بكتاباتهم باللغة العربية بل هم يشكلون جزءا لا يتجزأ من المشهد الثقافي العربي، مثل رشيد بوجدرة، والطاهر وطار، وأحلام مستغانمي، وواسيني الأعرج، وبنظرة متفحصة وأمينة أيضا، نجد أن الكتابات باللغة الفرنسية لا أهمية لها على الإطلاق، وهذا ليس موقفا سياسيا أبدا، إنما قراءة أكثر الروايات بما فيها روايات ياسمينة خضرة وروايات الطاهر جعوط هي مضيعة للوقت، روايات مكتوبة بلغة فرنسية فجة، وبطريقة بدائية تفتقر للقيمة اللغوية، ولو قارناها بالروايات المكتوبة باللغة العربية فإنها تشحب أمام روايات أحلام مستغانمي ورشيد بوجدرة وواسيني الأعرج ..وحتى روايات الجيل الأصغر نسبيا مثل حميدة عياشي وبشير مفتي، فإن روايات الأخيرين تفوق روايات الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية باللغة والحساسية والتجريب والنوعية أيضا.



كتب المرحوم كاتب ياسين إن الفرنسية في الجزائر هي غنيمة حرب...ولكن لا أعتقد أنها غنيمتنا إنما هي غنيمتهم، ومع ذلك فإن ما يثير الاهتمام حقا هو الجيل الجديد من الطلاب والكتاب المعربين والذين يعيدون لنا الصورة معكوسة تقريبا، لتصبح اللغات الأخرى في بلداننا غنيمة ثقافة ومثاقفة لا نصبح نحن وآدابنا غنيمة حرب واجتياح ومصاولة.

*

قبل رحيلي عن الجزائر وقفت في شرفة فندق الأوراسي المطل على البحر وتساءلت:

أهذه هي الجزائر، شمس ترتفع في السمت، وسحب بيض قادمة من الجنوب، بحارة بملابسهم يقفون عند الساحل وأقدامهم المطينة تبقع الرصيف...هذه أنت إذن يا مدينة البحر مثلما كنت شابه أبدا، غانية، مراوغة، عذبة، وجميلة، ونحن شيوخ متعبون بلحى مشعثة، نطلق أنيننا حينما نراك تذهبين لغيرنا، أنيننا حزيننا أشبه بأنين حيوان جريح...نحن مجنونون بك: سواح صغار، فنانون، موظفون براتب بسيط، مخادعات مدنيات، رجال، نساء، كلنا متعلقون بك، مثلما تتعلق العائلة البسيطة بابنتهم الجميلة.



أسواق، جوامع وشعراء
رحلة إلى طهران

(عند الغروب في زحمة حضور الأشياء المجهد، ثمة نظرة متربصة تبصر حجم الوقت، وعلى الطاولة ضجيج فواكه ناضجة، ينساب نحو جهة إدراك الموت المبهمة، فيما الريح تهب لحاشية الحياة الوديعة، شميم المزرعة المترامي فوق بساط الفراغ، وكمهفاة يمسك الذهن سطح الوردة البراق، ويروح عن نفسه نزل المسافر من الحافلة، يالها من سماء صافية، وخطف امتداد الشارع غربته. عند الغروب)

الشاعر الإيراني سهراب سبهري




مكتبة
الفكر الجديد

-I-

شعراء جبال البورز

"بعيداً عن الدروب المعروفة، مرّ متخفياً، حيث كل غابة،
وكل جسر يعرف النشيد"
الشاعر الإيراني أحمد شاملو

*

لا أتحدث عن رحلة النبي دانيال الشاقة، ولا عن مغامرة لصيد كبير، إنما عن رحلة إلى طهران، إلى كلاسيكية الأدب الفارسي، إلى خان شاه نامة العظيم دون أن أعرف شعراء كثرا يقرءون في مقهى صغير أشعار جامي، أو حافظ، أو الشيرازي، ولا كتابات ملا صدرة أو عبد الكريم سروش.

*

من مطار أتاتورك حملتني الطائرة ومرقت بي في ليل إيران البهيم، فجر جديد على جبال البورز المتعرجة، على مت دامافاند الملوكي وقد غمرنا ضباب طهران الأبيض. سائق التاكسي الذي أقلني إلى الفندق طلب بقشيشا عاليا وبالدولار، ظنني مليونيرا أو تاجرا، رفعت يدي أمامه إلى الأعلى وقلت له أطلق النار!



وفي فندق آزادي كل شيء لا معقول وسريالي وساخر مثل حاجي بابا الأصفهاني التي ابتدعتها عقلية جيمس موير الساخرة، تأخذ مفتاح حجرة ليست حجرتك، والحمال يأخذ حقائبك إلى شقة ليست شقتك، وموظفة الاستعلامات بالرغم من جمالها التاريخي الساحر فإنها بلحظة أضاعت جوازي.

الشاعرة الإيرانية معصومة آصفي لحقت بي وقبلتني رغم وجود رجل دين في الصالة، وأخذتني إلى مطعم دربند التاريخي لتناول الكباب الإيراني بالسماق على أنغام الموسيقى الساحرة، النساء يدخن السجائر ويطرحن الإيشاربات عن رؤوسهن، والشادور أصبح أكثر تجسيما على الأجساد من الشادور القديم.

أدهشتني الشوارع الفسيحة الرائعة، المتنزهات الفخمة ذات الظل البارد وعطر مئات أشجار السرو المغروسة منذ القاجاريين، المنازل بأفنيتها الكبيرة وزجاج نوافذها الملون، سوق كارافانسيراي بممراته، وصفوفه المقببة المنخفضة، مسجد الشاه ومدراسيه، وفي المساء سرنا على طريق كالوس الجبلي بقممه المغطاة بالجليد، بتنا في منتجع كلاردشت الجميل، سبحنا في العيون الساخنة لمنتجع رمسر الساحلي، زرنا المناطق الأثرية لماسولة القديمة، تجولنا في الأسواق الشعبية على امتداد بحر قزوين، زرنا البرسبوليس ونقش رستم، ثم وقفنا أمام قبر حافظ، أمام القبة التي ترتفع إلى الأعلى كرمز للروح الصاعدة نحو السماء وتحدثنا عن الشعر الفارسي الذي تأثر بالشعر العربي.

*

"تأثير اللغة العربية على اللغة الفارسية مثل تأثير اللغة الرومانية



على اللغة اللاتينية، الرومي، الخيام، سعدي، حافظ، ناصر خسرو، العطار، و جامي كلهم تأثروا بالقرآن و الشعر الجاهلي و الأموي و العباسي، سعدي انتحل قصائد المتنبي، وفردوسي رغم عنصريته لم يستطع أن يستغني عن المفردات العربية في شاهنامته" قالت معصومة آصفي ذلك وهي تتعلق بذراعي وتحاول أن تضبط إيشاربها الذي انزلق عن رأسها، شعراء آخرون كانوا في حديثها: ميرزاده عشقي الذي قتله بهلوي، عارف القزويني و فرخي يزدي الذي تم تخييط فمه بسبب قصائده المحرضة ضد الشاه، الشاعر والأمير القاجاري ايرج ميرزا الذي مزج الغزل و الحب المجازي بقدح أبناء زمانه من سياسيين وغيرهم، بروين اعتصام و قصائدها العاطفية ذات الصبغة الإنسانية و المشحونة بالنصائح و الحكايات.

*

مشينا معا في الأسواق والشوارع وفي الساحات الواسعة، التقطنا صورا أمام دكاكين الحلاقين، أمام باعة التوابل والمكسرات، أمام محلات المجبراتية، أمام المكتبات الكبيرة، أمام محلات العطارة والبقاليات، أمام المطاعم التي تقدم البيبسي كولا والساندويشات. الوجوه هنا تذكرني بالشخصيات التقليدية من تجار البازارات في قصص صادق هدايتي، الروائي الذي انتحر في شقته في باريس في الثلاثينيات..وجوه تذكرني بشخصيات برزك علوي وروايته عيونها، تذكرني بشخصيات محمود دولت آبادي والذي يعد نجيب محفوظ الأدب الفارسي، بفروغ فرخ زاد التي تشبه غادة السمان من نواح كثيرة، بشخصيات رضا برهاني والمسرحي سعيد سلطانبور الذي أعدمه الخميني...أمام واجهة المكتبة التي توقفنا أمامها كانت الكتب الأجنبية المترجمة للفارسية



تتصدر الواجهة: بروست، توماس مان، مكسيم غوركي، نجيب محفوظ، غادة السمان، طه حسين، توفيق الحكيم، غسان كنفاني، البياتي، محمود درويش، عبد الرحمن منيف، نازك الملائكة، محمد مفتاح الفيتوري، سميح القاسم، قال لنا كاتب شاب إن الرقابة شديدة ولم تسمح بطبع روايات مهمة مثل يولسيز لجويس ومدام بوفاري لفلوبير وغيرها.

*

سرنا أنا ومعصومة آصفي وكاتب شاب حتى وصلنا محطة القطار، جلسنا في مطعم لغياب المقاهي، ثم انحدرنا صوب منتزه أجامشيد الكبير وجلسنا تحت الظل الثقيل والصامت، كانت النسائم الباردة تخفق على وجوهنا، وحديثنا انعطف شيئا فشيئا نحو الشعر:

تحدثت لي معصومة آصفي عن علي أسفندياري الذي دمر أسطورة الشعر الكلاسيكي، عن نيما الشاعر الكئيب الذي قال:

هذا دلوك في يدي وأنا بتركم ألوح بالماء من بعيد.

تحدثت لي عن برويز ناتل خانلري ومحمد حسين شهريار وفريدون توللي.. تحدثت لي عن بهجت تبريزي الذي صرخ: "سلاماً يا حيدر بابا" والتي كتبها باللغة التركية، وعن أحمد شاملو الذي كتب قصيدة النثر الإيرانية، أدهشتني وهي تتحدث دون انقطاع عن قصائد شاملو الميتافيزيقية، عن شاملو الذي كان يرتعش من خوفه من العوالم المجهولة. كنت أشعر ببدن شاملو وهو يقشعر، شاملو الذي بكى الهواء المضبب بالحزن ونتف الحبال الفضية في مسبحة الجواهر، شاملو مزيج من ريلكة وبرودسكي فالشعر حادثة وحادثة مسببها الزمان والمكان. ولكن شكلها يتحقق في اللغة...



كان شاملو يسمي قصيدة النثر بالشعر الأبيض وشعر لا يريد أن يظهر على شاكلة الشعر، قصيدة النثر هي رقص لا يحتاج إلى إيقاع، موسيقى حسية وشعر أبيض، فكر متمرد، كما كتبته فروغ فرّخزاد، كما كتبته وهي تبحث عما خفي فيها وعن البحرُ الذي لا يمكنها أن تخفيه في هذا الطوفان المخيف..

مهدي إخوان شاعر اليأس والجو الكئيب والأبواب الموصدة والرؤوس في الياقات والأيدي المخفية وحيث الأشجار هياكل من بلور مرصوف، والأرض ميتة القلب والسماء واطئ سقفها...

ومن ثم سُهراب سبهري السريالي الذي مزج شعره بالعرفان والدروشة وسبهري الذي خشي أن تأتوا على رؤوس أصابعكم، كي لا تتفطر آنية وحدته الخزفية الرقيقة...

جلسنا طويلا ونحن نحدق بالوجوه والأشجار والشوارع، جلسنا طويلا ونحن ننظر إلى الطيور البيض وهي تحلق في السماء المكشوفة، جلسنا طويلا ونحن نتذكر الشعراء الذين قتلتهم الأيدي الخشنة والوجوه المتصلبة في ليل طهران البهيم.

*

في آخرة الليل سرنا في الميدان الكبير وقد وجدناه حيا ونابضا منذ عصر القاجاريين، ضرب وجوهنا الهواء البارد ولسعتنا رطوبة قارسة منعشةً إيانا بالنبيذ الذي أخفيناه في حقيبة صغيرة، والسجائر والدفء الفواح، كان الوقت متأخراً ليلاً، وكان الهواء يشتد في الضاحية كلها، وراحت أشجار السرو الطويلة المدببة تصفر في الأعلى، والإسفلت يتجلد على الشارع، بينما أخذت القناديل ترتجف وهي تلقي بنورها على البنايات المتقابلة.



-II-

طهران من الجامع إلى السوق

(أتكلم من عمق الليل، خارج عمق الظلام، وخارج عمق ليل أتكلم.

إذا أنت جئت إلى بيتي، صديقي.. إجلب لي مصباحا ونافذة أنظر من خلالها الحشد في الممر السعيد).

الشاعرة فروغ فرخ زاد

*

طهران هي مدينة التركواز واللازورد المبهج في تكاثفه، والمشرق في صفائه، طهران المحاطة بنطاق الجبال العظيمة والجميلة، مدينة المنائر وقبب المساجد المذهبة، أو القبب الجميلة المصنوعة من المينا الزرقاء، المدينة التي تضوع منها روائح أشجار البرتقال المزهرة، مدينة الفضاء الواسع وديكور الورود في الربيع، الديكور العظيم الذي يغطي أرضها.. وساحاتها وشوارعها وأرصفتها الواسعة.

ديكور عظيم من أجمات الورود كما لو كنت في قصر من قصور ألف ليلة وليلة: شيء ساحر وحلمي وأنت تعيش كل لحظة مجد تألق الألوان المختلفة التي تغطي السهوب غير المتناهية، أو واحة الأزهار البيض النابتة على مقربة من الجبل، أو موجة الأشجار والسلام



الفردوسي في الساعات الأولى من الصباح منتشية في الضياء الباهر، ومرتخية تحت أشعة الشمس المشرقة.

*

في مساء طهران الأبيض لسعنا البرد لسعات صغيرة، وغرق كل ما حولنا بغبش ضبابي كثيف، كنا نسير غير أننا لم نعد نميز سوى جزء صغير من الميدان، ومن هذه الغشاوة المهتزة انبثقت بقع مصابيح خافتة جداً، وراحت تسبح أضواؤها. أما في الأعلى، في الفراغ المدخن، فبدا الجزء الأعلى من صورة كبيرة قائمة منصوبة في الساحة.

*

في ساحة آزادي التي تبلغ حوالي خمسة هكتارات وهي أكبر ساحة في العالم ...وفي وقت متأخر من المساء وصلت باصات بيض كبيرة كان يستقلها السياح الأميركان والإنجليز ...ثم انساب الضباب الكثيف على امتداد العشب والساحة المقفرة، وتقدمت عربات الزبالين في الساحة لتصل إلى النصب، وتعالت أصوات الأطفال وصراخهم النحيف في الليل البارد البهيم. ومن النوافذ المفتوحة للسيارات التي كانت تسير بهدوء في الساحة أطلت الوجوه التي تترقبنا، أما معصومة فقد كانت تنظر إلى هذه العربات وإلى الرصيف المبلل الذي يلمع تحت الأنوار وإلى حشد المسافرين غير الكبير الذي هبط من الباص وإلى الساحة الفخمة التي لفها ظلام رمادي كثيف كأنه مشهد جديد لم يحدث منذ سنوات، فلم تكن سياسات الحكومة تسمح للسياح الأجانب القدوم إلى طهران.

*

سياسة الإصلاح الجديدة سمحت للسياح الأميركان القدوم إلى



طهران..تحت نظرات المحافظين المعادية..وفي الساحة الكبيرة التي وقفت الباصات عندها كانت هنالك لوحة كبيرة مرفوعة إلى الأعلى مكتوب عليها (تسقط أميركا)...

"شعارات .." البلد كلها شعارات...قال حميد سهرابي الصحفي الشاب الذي رافقنا ذلك اليوم وهو يلف رقبته بياقة الجاكتة: -"كم أكره هذه الشعارات ..وهذه الصور الكبيرة أفضل عليها دعايات بيبسي كولا.." كان نحيلا جدا، متوترا إلى حد ما، له وجه غريب شبيه بطائر اللقلق، وعيناه حالمتان محتشدتان بالرؤى، وفي المساء يلفه قلق ساحر، حاد، وماكر.

" الجو بارد " قلت لهم.

" مساءً يعم الضباب لكنه سيتحسن في الصباح كثيرا"

صعدنا الدرجات المرمرية الملساء إلى الساحة المجاورة، وهناك شممنا على الفور رائحة الربيع اللاذعة، والحجر المبلل، والماء الذي يقطر بهدوء وعذوبة...مشينا ببطء كبير ذلك الوقت على الأرصفة الصغيرة والممرات الضيقة التي تتخلل العشب ننظر إلى الرطوبة المظلمة، إلى الضباب الأبيض الذي هبط تلك الساعة وكأنه قادم من جبال البورز ليخفي مشهد المدينة ويقدم بدلا عنه مشهدا جميلا آخر، ليقدم لنا مشهدا غريبا لم نتعود عليه في الربيع، ويتخلل المدينة ويبرزها خلف غلالة من بياض بناسها، بأنوار مصابيحها، بواجهات فنادقها، وبأسيجة قصورها، بمصابيح جسورها، بحجر قنواتها، وبكل حياتها المسائية التي تبدو وكأنها مخنوقة بغشاوة سميكة ومنتشرة في كل مكان، ويكاد الضوء لا ينفذ منها.



خف إلينا نادل المطعم وفتح الباب لنا، وساعدنا بمهارة وحذر عجول على إيجاد مكان لجلوسنا، فاتخذنا مقاعد جلدية باردة في صالة مضاءة إضاءة خافتة، وبمصباحين كبيرين ومعتمين، أشعلنا سجائرنا وأخذنا ندخن باسترخاء كامل، بينما طلبت معصومة النارجيلة التي حملها النادل ووضعها على الطاولة، كنا ننظر من الزجاج إلى الشارع، فراحت بعض قطرات الضباب تترقرق على الزجاج ثم تنزلق إلى الأسفل.

*

من هذا الزجاج كنا ننظر إلى طهران وهي تتجمع مثل قبضة الكف على نفسها .

طهران التي ذكرها الاصطخري في المسالك والممالك في القرن العاشر بوصفها قرية قبل أن يعمرها الصفويون، طهران العظمى التي شيدها التدمير المريع للري على يد المنغوليين فهاجر الناس إليها ليؤسسوا اليوم متربول الإسلام المنشق والمعارض للإسلام الرسمي، طهران التاريخ والتي كانت تعني المزارع الكثيفة والشجر الغض والغظارة الرائعة للنبات وهو يؤشر نمو مدينة عصرية بشكل تدريجي من القرية التي كانت مشهورة بثمارها الرفيعة وحدائقها الجميلة إلى العاصمة العظيمة، فالشاه طهماسب من سلالة الصفويين اختار طهران كمركز إداري لمملكته فأدّى هذا الأمر إلى بناء العديد من البنايات الحكومية الكبيرة والقلاع والأبواب، وفي عصر سلالة الزند تحولت البلدة الصغيرة إلى مدينة عسكرية على يد أول ملوك القاجار آغا محمد خان الذي سمّى طهران عاصمة للبلاد في العام ١٧٨٩ .

وها هي طهران التي كانت الحصن العظيم الذي بناه شاه فاتح علي



ملك القاجاريين، أصبحت أبوابا ومساجد في زمن الشاه ناصر الدين، أصبحت ساحة طوبخانة الكبيرة والبنايات العسكرية التي بقيت آثارها حتى الآن...وها هي طهران اليوم... الحياة الغافية والمترنحة في هدوء الصيف ومسائه، ويزيد من برودة الصيف النسمات الهوائية الهابة من جبال متدامافاند، ومن المتنزهات العديدة والحدائق الكبيرة حيث تتفتح الزهور على شكل صفوف على مدار العام، وخلف الشوارع الواسعة هناك صفوف الأشجار في الدروب أو في الشوارع الصغيرة، والماء الذي ينزل من المدينة العليا على طول البالوعات العميقة والعريضة التي تبدو مثل الأنهار الصغيرة أثناء الربيع...

وفي الصباح هناك دزينة من المقاهي الصغيرة بسقوف الخارصين التي تعشعش بين الغابات بانتظارنا. وقد فضلنا الراحة القديمة الطراز، وهي الجلوس على الأرائك المنخفضة التي تغطّت بالسجاد القديم، لنأكل الكباب بالسماق ونشرب الشاي من السماور الفارسي والإستكان.

*

في الأسواق الفارسية الكائنة في جنوب طهران، شممنا أول دخولنا رائحة التوابل الحادة ورائحة جلود الغنم، وسمعنا الضربة الصوف لفتح السجادة من الأكوام العالية كما لو كنت تفتح مخطوطة، رأينا الوجوه الفارسية في الدكاكين، والعرب أيضا، والبلوش، والمنغوليين، رأينا إيران المختلطة التي لا تريد أن تسمع كلمة عن اختلاطها، رأينا العمائم المهدّبة على الرؤوس، أو القبعات الجلدية، أو الطاقيات الشبيهة بتلك التي كان يرتديها تولستوي...في سوق دروزة ميلي، بواجهته الجميلة المصنوعة من الطابوق البارز، والمزينة بالبلاط الزنجي، والذي بناه الشاه في العشرينيات..



السوق في طهران هو النقطة المركزية من البلدة، ليس للتجارة فقط إنما للعلاقات الاجتماعية للزواج وللسياسة، وهو مفتوح على الدوام، ويستقبل المهرجانات الدينية أيضا، وأعلى نشاطاته منتصف النهار بطبيعة الأمر، أنت تسمع الصياح، والمساومات، والطلبات، وصراخ الحمالين، والنساء، والرجال القادمين من كل مكان، وعلى الجانبين كل ما تحب: السجاد، المجوهرات، الجلود، الحرائر، النحاس، الذهب...الدكاكين تبدأ من ميدان سبزه على طول عشرة كيلومترات، وبأبواب متعددة يحرسها رجال الأمن، ومستودع كبير في فناء مستطيل مفتوح، وهناك النافورات والبركات الصغيرة التي تخفف حرارة الصيف الجافّة، وبعض التجار يرش الأرضية فتصبح زلقة، وأنت تسير عليك أن تتفادى الحمالين المحمّلين بأكوام عالية والذين يشقّون طريقهم بسرعة بين الحشود، وقد ذكروني بالحمالين الفرس في أسواق بغداد.



-III-

من الفردوسي إلى سروش

طهران خان الفردوسي وشاهنامته، أبطال أسطوريون عنيفو الطباع، ملوك ثابتو الكلمة، وشعب متدين مقهور قادم من الأرياف كان يتحمل التضحيات بلا انقطاع، وهو اليوم يحكم المدينة بعنف مقدس.. شيء متوارث على الدوام وأنت تراه يتقدم من جيل إلى جيل، شيء ثابت كما تراه في المتحف الآثاري الذي صممه المهندس الفرنسي أندريه غودار، المصنوعات اليدوية القديمة، المجاميع الجميلة من الزجاجيات القديمة والمعاصرة، متحف السجاد الذي لا نظير له في العالم، قصر سعد آباد، مساكن الشاه السابق، القصور البيضاء والخضراء، متحف المجوهرات..الذي صعقنا بمجموعة الالماس، والياقوت، والزمردات والأثاث المغطى بحجر كريم، والذي جعل السياح الإنكليز يسخرون من جواهر تاج إنجلترا...كل شيء مبهر في هذا المكان الفذ: جوهرة الربيع التي تظهر على العشب البري الغض، عيون النساء الجميلة والحاذقة، الشجر المعمر الذي يصمد في العراء، الفضاء الكبير الذي يسمح بتداول الهواء، البرد الذي لا يقبل الخلط.





ضباب طهران الذي يلف مرتفعات البورز ومت دمافاند يلفنا أيضا، فسهرنا ذلك اليوم حتى الصباح...وقبل ذهابنا إلى الفندق نمنا في منزل حميد سهرابي حتى الظهيرة..ثم استيقظنا متلهّفين لرؤية الآثار القديمة.

خرجنا من منزله على عجل... وفي الطريق توقفنا لنشتري علبة سجائر من رجل يرتدي طاقية غريبة ويجلس أمام محطة البنزين، بين مصفّف الشعر ودكان البقال... كانت معصومة آصفي تعرض علينا اكتشاف أسرار طهران عبر رؤية متاحفها القديمة، اكتشاف الأسرار الغامضة للفنّ.. وحميد سهرابي عرض علينا الصعود في العربات التي تجرها الخيول ووسائل النقل القديمة لنجعل من أنفسنا على تماس كامل مع المجتمع..وبدلا من هذا وذاك ذهبنا إلى سوق تاجرش...وغبنا في ممراته ساعة، ثم زرنا المتاحف الرائعة، ذهبنا إلى مرشد جعفربور، تسلّقنا مرتفعات توشال، لعبنا النرد والتخت قرب الكهف الغريب، جلسنا في مجلس للاحتفال بعيد ميلاد حضرت فاطمة، ذهبنا إلى مسبح في الهواء الطلق وقد عامت معصومة بملابسها، جلسنا في متنزه شهر جنوب طهران.

*

في المساء أخذنا الحافلة واجتزنا صحراء قاشان الرملية المترامية، كانت الشوارع هادئة ورائعة، وكان الجو لطيفا، والهواء المنعش ضرب وجوهنا وعبث بشعرنا ،هذا البرد اللذيذ الذي أنعشنا منحنا قوة جديدة لتسلق التلال...وبعد ساعات عدنا نلهث لندخل السوق في كرفانساري، فشاهدنا هناك الموقع القديم الذي يشبه رجلا مقرفصا في الساحة، مشينا سريعا في ممرات السوق الضيقة، جلسنا تحت القباب المنخفضة، تسلقنا الأشجار العملاقة التي تنتشر بين البيوت، تجوّلنا في الظلّ البارد وعطر



مئات أشجار السرو القديمة يحوطنا، ومن المطعم الكائن في آخرة السوق على مقربة من الجامع اصطحبنا شاب عراقي التقينا به صدفة إلى منزل جميل من عهد الصفويين، وقد تهنا في أفنيته، وغرفه، ونوافذ زجاجه الملوّن...

*

لهب هائل في مدفأة مشتعلة في ركن المنزل، مقاعد ذات اذرع مكسوة بالساتان الأبيض مع أريكة واسعة، امرأة جميلة ترتدي ملابس راقية تعيد إلى الذاكرة ملابس الأميرات القاجاريات تتحدث بإنكليزية غريبة، واضحة الحروف وبالغة الهشاشة في ربط المقاطع.

تعرفنا على شاب من تلامذة عبد الكريم سروش، المفكر الإيراني صاحب أكبر ثورة في تجديد الخطاب الإسلامي، وتحدثنا عن الحركات الفكرية والثقافية في العالم، عن تجديد الإسلام وملاءمته للتحولات الاجتماعية والثقافية المعاصرة، عن أفكار عبد الكريم سروش المذهلة وحصوله على جائزة أرازموس الكبيرة في الغرب مع فاطمة المرنيسي وصادق جلال العظم، عن كتب علي شريعتي واختلاف وجهات نظره في تجديد وإصلاح الإسلام، عن تقاطع أفكاره مع أفكار داريوش شايغان الذي يريد تجديد الفكر الإسلامي عبر تطويعه مع الحداثة الغربية، عن محمد أركون وتجديده الميثادولوجي في قراءة الظاهرة الإسلامية، عن هابرماز الذي أعجب بسروش وألقى محاضرة رائعة في جامعة طهران، وحدثنا الشاب عن مشروعه في إصدار مجلة فكرية وطلب مني مقالات لترجمتها ونشرها، واتفقنا للقاء في اليوم التالي في بهو الفندق.

*



من النافذة الطويلة للقصر المهيب، النافذة المغطاة بستائر الموسلين والدانتيلا، من السجاد الفخم الذي يفرش البلاط المرمري، من الوسائد على المتكئات والآرائك، من حياة الأبهة والترف الذي لا يُحد يأتي البحث عن معنى جديد في حياة هؤلاء الناس...قسوة سلاطينهم، عنفهم، قوتهم، مبالغتهم، إفراطهم، جرأتهم، حياتهم وأفكارهم القصوى..الحياة إما قاتل أو مقتول..إما أسود أو أبيض..وهكذا كنت أنظر بمشاعر متناقضة إلى هذا الشاب المعجب بسروش، والمتحمس شديد الحماس لفكرة أن يحقق عبر الإسلام المتحرر معجزة...أنا أيضا أعجبت بسروش..أعجبت بأفكاره..وقد أدركت على نحو كامل أن القطيعة مع حضارة شكلتنا وكونتنا بشكل جماعي أمر مستحيل، والعودة لأسس الشريعة القديمة أمر مستحيل أيضا..ولم تعد أفكار شريعتي القريبة من أفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة في محاولة جعل المصطلح الإسلامي للحكم متوائما مع الحياة المعاصرة أمرا ممكنا، إذن لم يكن هنالك سوى تجديد الإسلام من داخل الإسلام..الثورة البروتستانية في الإسلام كما سمى هابرماز أفكار عبد الكريم سروش بحق.

*

سروش أحد أعظم المفكرين والفلاسفة الإسلاميين منذ ابن رشد، وموقعه في الثقافة الإسلامية شعبي من جهة وجدالي من جهة أخرى، لقد حاول وبقوة دمج مسارات الفلسفة الإسلامية مع فلسفة وعلم الاجتماع الغربيين، وقد لقبه الفلاسفة الغربيون ب" لوثر الإسلام" وبإرازموس الإسلام أيضا، وكانت صيحته وسط غضب واختلاط الثورة الدينية في إيران عالية، كانت صيحته الشجاعة هي مصالحة الإسلام مع الأفكار



الغربية الحديثة، ولاسيما الديمقراطية وحقوق الإنسان... فلسفة سروش هي نصوص فذة ومختلطة بحقول متعددة في نسيج خطابي واحد، فكتبه مثل صيدلية تجمع التاريخ مع الفلسفة مع العلوم مع تفسير القرآن مع الشعر الفارسي.. .وهو أول من جعل من الشعر واسطة وميثادولوجيا في قراءة الظاهرات... شيء من الهرمينوطيقية.. والإيمانية.. والواقعية.. والشعرية في نص واحد.



-IV-

فلاسفة، متصوفة، وشعراء

(أعترف بالبهجة الكبيرة صراحة، وبمثل هذه الغبطة العظيمةأيضا.
أنا مستعبد بحبك، وحر من كل عالم آخر، مثل طير الجنة، إن أفترق عنك سأسقط في فخ الحياة، الحياة والمأساة الدنيوية أيضا.
كنت ملاكا، مستقرا في السماوات؛
وترميم العالم مهمّة أوكلت لي.. .حوريات الجنة، البركات الباردة والشجرة على أمل في الإتحاد مع بعضها، غير إني تركت ذاكرتي بسرعة شديدة).

من قصيدة غزل لحافظ شيرازي

*

من قاشان ذهبنا إلى أصفهان، المدينة الغريبة على نهر زنده، في الوسط هنالك نهر جفَّ مع بضعة بركات ماء متروكة، وعلى الضفة رجال يصيدون بشبكات الرمي التقليدية التي لم يعد يستخدمها أحد، إنها أرض حكيمة لا تعد الناس بأشياء زائلة، إنما بآمال موضوعة في يد الله، إنها الجمال الحقيقي على الأرض مثل الربيع والصباحات الرقراقة والأماسي الذهبية، والجلوس قرب الجامع على مصطبة تحت ظل الصيف



وليس هنالك سوى الإيمان الذي يطرد عن الإنسان رعب الموت...في الطريق متصوفة يسوحون على الأرض ويتوقفون أمام المشهد الأكثر بساطة والأكثر حماسة. ومن بين صياح المتهجدين باسم الله بانوراما تتخللها أشجار السرو، وأشجار الدلب، وخرير الماء، وغناء الشحرور، وصوت السمان، وشرابت الزنجبيل المثلجة والموضوعة بطاسات النحاس.

في الظهيرة زرنا علامات المدينة التقليدية: السوق، الساحة، المساجد، القصور والجسور المشهورة المتقوسة على قاع النهر الجاف، ركضنا في الساحة العظيمة القريبة من القلعة..شعرنا ما يشعر به المغامر وهو يواجه موجة شاهقة، او ما يحسه متسلق الجبال وهو يتطلع إلى القمة الشامخة..كنا نعيش نشوة الصعود والقفز والانحدار...تعرفنا هناك على ماه سلطان المطربة الشهيرة من زمن الشاه وقد تحولت إلى حاجة بعد الثورة..كانت جالسة على الصوفا ترتدي وشاحا أبيض بشرائط صغيرة، وعيناها السوداوان هي الأكثر روعة متقدة مثل جوهرتين محاطتين بالكحل، وبشرتها المتوردة تخبرنا بأنها وإن كبرت فإنها لم تفقد الاطلالة الشهوانية لجسدها ولا بريق عينيها الجميلتين.

وفي البازار أكلنا الساهون، الحلوى التقليدية في إيران والتي كتب عنها آبادي في رواياته، وشربنا قريبا من المقبرة المياه العذبة من أحواض الموزائيك والفسيفساء والمرمر، وقد نام الرجال في الظل كما لو كانوا في كتاب من كتب غوبينو أو شاردان قبل مئة عام.

*

في المساء ذهبنا إلى جلسة الرياضة الفارسية القديمة (الزورخانة) والتي تؤدى على صوت الموسيقى وحركات المرشد...وفي نهاية الفصل



المسرحي الباهر كان ركوع الرياضيين الذين يشبهون مصارعي السوما..وكان سجودهم ودعاؤهم وهم يجلسون على الأرض خاشعا، وفي الخلفية كان ينتظم مشهد المتفرجين مثل متحف من الوجوه والبذلات الشعبية تحت الأروقة المروسة للمبنى القديم، وجوه الرجال النحاسية المتغضنة، ووجوه النساء الجميلات اللواتي يتحاورن غير مباليات، ثم قدموا لنا الفستق واللوز القادم من جبال زاغروس طريا ومملحا ..

أصفهان هي آسيا الحقيقية المتكونة من النساء الملفعات اللواتي يسحبن أقدامهن بهيئة لا مبالية ومن الرجال الذين يسيرون في البازارات، ومن الدجاج الذي ينقر الحب في المزبلة، ومن البقرات التي تبحث في العشب عما تبقى من قشور البطيخ.

*

واصلنا انحدارنا جنوبا، توجهنا نحو شيراز عاصمة الشعر الفارسي، المدينة الشاعرية العظيمة التي ضمت قبر حافظ...وكان علينا أن نتبارك بهذه المدينة المقدسة والتي يسميها القدماء مدينة الشعراء..

قالت معصومة آصفي: إنك لن تكون شاعرا أبدا.. إلا أن تتبارك بها.. لن تكون شاعر إلا أن تقول لها:

ها نحن جئناك لنلامس سحرك وشِعْرك وقبر حافظ

يقولون: لا يمكن لأحد أن يصبح شاعرا إلا أن يلامس مياهها العذبة، وهواءها البارد، ويداعب قبابها ومآذنها وأبراجِها. لا يمكن لأحد أن يصبح شاعرا عظيما إلا أن يجلس في مقاهي أرصفتها، ويمسح وجهه بجدران قبر شاعرها، وبصخرتها الكبيرة، وبأسوارها المهدمة، وأن يتسلق تلالها وأبراجها، وأن يستريح تحت أفياء أشجارها...



من مكان بعيد كنا ننظر إلى فنادقها القديمة، وإلى أزقتها المتعرجة، وكنا نميل شيئا فشيئا على أسواقها ومساجدها، وهي تتراءى لنا شيئا فشيئا بقبابها ومآذنها، تتراءى لنا بأزقتها المتعرجة ومداخلها الضيقة ومياهها الوسخة وسكون مقابرها، سكون الماء، سكون الضوء الذي ينسل قويا من سماء صافية، سكون اللهب الذي يشع من نوافذها، من الضوء الأزرق، من البخور الذي يتصاعد من قبر شاعرها... قبر حافظ وهو يداعب وجه المدينة الأبيض المدوّر، يداعب عظام وجنتيها البارزتين... حديقة إيرام، باب قرآن، جامع ناصر الملك، كل شيء هنا مصنوع من هندسة معمارية عظيمة ومن كرم دافئ.

*

وقفنا أمام قبر حافظ شيرازي منبهرين لا بشعره هذه المرة إنما بالأبهة العظيمة والروحية لهندسة قبره: للحجارة المنحوتة مثل قبة، للقوس الذي ينفتح مثل صعود الروح إلى أعلى، للأبعاد الأربعة التي تشكل انتصاب الأعمدة، للسقف الذي يلمع تحت الشمس وقد أبرزته الهندسة الباذخة، للملمح الرقيق لشعر الشيرازي والذي طبع حياته وقبره، وطبع المرمر الأبيض المبرقش، والخلفية الزرقاء بلون السماء والخضراء بلون التفاح، واللمعة الرقيقة التي تظهر بمرح خلف الأشجار.

كان للهواء عذوبة ساحرة وكنت أشعر بالحياة وهي تغمرني وسط هذا المكان الحي والخصب، كنت أشعر بالجنائن الحقيقية للشعر غير المهدمة منذ مئات الأعوام، الحجارة التي يمكنها أن توقظ فينا شعرا وأفكارا فلسفية..

صعد أحد الحاضرين وأخذ يتلو علينا قصائد حافظ شيرازي من كتاب في يده، أخذ يتلو علينا قصائده الصوفية الغزلية بصوت عذب،



بصوت رخيم ومنغم. شعرت بفرح كبير، شعرت بالزهو والانطلاق، شيء أقرب إلى الفرح الذي يحسه المتزلج على الجليد قبل النهاية الرائعة للمنحدر الأبيض.

*

عدنا إلى شيراز لنزور مرة أخرى آثار بريسبوليس في التلال لقاء تذكاري آخر: الخراب الكبير، مسيرة على طول جدران نقش رستم، الرليف البارز والمفصّل بشكل مدهش لأثيوبيين وليبيين وعرب وأرمن وثيران وأكباش وأسود وجمال. وعلى الحجارة المحفورة تقوس الحواجب، الضفائر المصنوعة من صوف الخراف، التنورات ذات الطيّات، بريسبوليس مقعد الإمبراطورية الفارسية منذ ثلاثمئة عام قبل الميلاد، الموسوعة البصرية للتاريخ القديم، يوم كامل مع حدائق نارجانشتان، مسجد ناصر الملك، مدرسة خان اللاهوتية، قبر حافظ وسعدي، وكيل باب القرآن والسوق... لقد أذهلنا الفنّ الفارسي القديم والرائع، تسلقنا جبال زاغروس الرائعة الهائلة ووصلنا بوشهر المدينة العربية القديمة، تجولنا في كنيستها الإنجليزية السابقة، تمتعنا بمناخها الاستوائي الدافئ، وهو أجمل بكثير من المرتفعات الوسطى المتربة الجافّة؛ عمنا في الخليج العربي من جهة فارس وهو الأكثر جمالا ثم عدنا إلى طهران بالطائرة.

في اليوم التالي حضرنا حفلة عرس أحد أبناء الأرستقراطية الطهرانية القديمة... وصلنا قبل الغروب بقليل إلى منزل فخم شمال المدينة. الحدائق الكبيرة مذهلة في تناسقها، وقد أزالت النساء الأوشحة من الرؤوس وارتدين الملابس الجميلة. صعدت فتاة جميلة إلى المنصة وغنت قصيدة جلال الدين الرومي الشهيرة والتي تؤدى دوما في الأعراس:



(شربت النبيذ لوحدك..وأنا أرغب بالمرور عندك، نحن نقود السكارى إلى عرش..فيظهر وجهك اللامع الملوكي...ويضيء اللهب مكاني...كلّ زاوية تضاء بنورك...).

قال حميد: إن المرأة الطهرانية كثيرة العاطفة، وهي رقيقة من المستحيل عليها أن تقاوم المحب أو تقاوم من يحبها...المرأة الطهرانية تبحث عن الرقة الهائلة عن المغازلة والإغراء والإثارة.

*

المرأة في إيران تتخبط بين عالمين عالم السياسة وعالم المجتمع، وتعيش صراعا ضاريا بين المتطلبات الدينية والحياة المعاصرة، بين التقاليد والانحراف عن التقاليد، والكثيرات منهن يصنعن نوعا من الموائمة الرائعة بين الاثنتين.

جلسنا في الصالات الكبيرة وقد أنارتنا الثريات المصنوعة من الكرستال، وكانت الموسيقى تحرض الناس على التوهج وبلوغ النشوة، ثم سرنا في الحدائق الجميلة بأشجارها الفخمة، سرنا في الحدائق الشاسعة المغمورة بضوء القمر، سرنا بالقرب من حوض سباحة كبير وزهريات تحوي أزهارا نادرة، تحدثنا عن كل شيء تقريبا، عن الشعر والسياسة والحرب والشعر والرواية والثقافة والجمال والحب والنساء، تحدثنا بأسلوب متوهج ورائع..، تحركنا في الحدائق الغابية بثقة كبيرة وبمزاج رومانسي شفاف... إن الجمال التاريخي القديم ..الجمال الذي اعتقدنا فيما مضى بأننا فقدناه كان مقيما في هذه الصالات السحرية والحدائق الفاتنة الخرافية وكأنها إحدى حكايات الجن، وكانت النساء تتفتح في الليل مثل بتلات التوليب، وبعد أن جلسنا على الصوفا صعدت الموسيقى وبدأ



الرقص، بل استمر حتى منتصف الليل، وقبل الفجر قطع العريس الكعكة ونثر والد العروس الأوراق النقدية على رؤوس الحاضرين، ثم رافقنا العريس بعد منتصف الليل إلى منزله الجديد، وعلى صوت الهورنات وصياح الصبايا أنهينا الحفل الجميل.



-٧-

قلعة آلموت وأسطورة الحشاشين

Alamut

(حشاشون.. مآثر مقتلهم على أيدي الولاة والسلاطين الذين يحملون المصاحف المكية والبيارق، الصيف لا يغرّد على صخرة سمرقند ولا يطرز الوسائد التبريزية في الدواوين، هذا الحسن الصباح ينقش على الرقاع الجلد حريته، بحر يتسلى بخرقته الطويلة الزرقاء عند أقدامه، ويحتضنُ شجاعته، بحر يغرغر عند مسبحته ويلغ بلسانه مسبحة الفقيه حبة، حبة).

من كتاب الحشاشين

*

أهذه الخرائب القديمة هي آلموت الأسطورية، قلعة الحسن الصباح ...حصن الحشاشين من الإسماعيلية النزارية، الفرقة التي دوخت الحكومات أكثر من قرنين من الزمان، في هذا المكان ربما وقف شيخ الجبل ينظر إلى جنته الصغيرة المعلقة في مكان ما، مكسوة باللون الأخضر ومملوءة بالنساء الجميلات والخمر والحشيش، فإذا ما حان الوقت، استدعى أحد أتباعه وأعطاه خنجراً، وقال له: أذهب لقتل فلان من



الوزراء أو الحكام أو القادة، فإذا ما فعلت ضمنت لك هذه الجنة للأبد.

تذكر كتب التاريخ أن ثلاثة من الطلاب الدارسين لدى الإمام موفق الدين النيسابوري، هم عمر الخيام ونظام الملك والحسن بن الصباح وكانوا يدرسون العلوم الدينية واللغة والهندسة والرياضيات والمنطق والعلوم واللغة الإغريقية والفلك على يديه، تعاهدوا على أن من يصل إلى الوزارة من بينهم سيساعد صديقيه الآخرين، وبعد أن صار نظام الملك وزيراً في بلاط الب شاه وطلب الخيام منه مساعدته في شؤونه الشعرية والعلمية، أما الحسن الصباح فقد حاول منافسة الوزير لدى السلطان، لكن المنافسة انتهت بخصومة شديدة وثم هرب الحسن وتحول بعد ذلك إلى قائد مشهور من قادة فرقة الحشاشين التي نظمت حملة من الاغتيالات السرية المنظمة للخصوم. وكان أحد ضحاياها الوزير نظام الملك نفسه وكانت آخر كلماته عند اغتياله وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة هي الشطر الرابع من رباعية الخيام التي يقول فيها: (جئت كالماء وكالريح أمضي).

*

في الأيام الأولى لم نستطع الوصول إلى قلعة آلموت قلعة الحشاشين، قلعة الحسن الصباح والقتلة المقدسين في الإسلام...أما صديقنا علي الذي أراد أيصالنا هناك كان متعبا جدا وعيناه ناعستان بفعل الإرهاق والألم، كائن هيستيري يقف عند القلعة، مؤمن وعيناه مفعمتان بالأسرار، ووجهه يشع كأنما من أعماق كهف بعيد، عيناه الغامضتان تذكرنا بعينين أسطوريتين مليئتين بالأسرار. في اليوم التالي ومنذ الفجر حزمنا أمتعتنا على ظهورنا وعلى خطى ماركو بولو الذي زار



القلعة في القرن الرابع عشر الميلادي صعدنا الجبل مع البغال التي تحمل الأمتعة وجليكانات الماء، وقفنا أمام القلعة نبحث عن جنائنها الأسطورية ومكتباتها العامة، قالت معصومة آصفي ...أسطورة الحشاشين هي واحدة من أكثر فصول التاريخ غرابة في العصر الإسلامي الوسيط، ولم يكن أحد من الواقفين هناك يؤيد الأساطير الغربية أو الإسلامية عن تكونها ونشأتها وأساليبها السياسية...

تقع قلعة آلموت بين التلال القاحلة جنوب بحر الخزر قرب قزوين، وتبعد أكثر من مائة من الكيلومترات عن طهران شمال إيران المعاصرة، ولها نظام ري غريب جدا، فقد شيدت القلعة بارتفاع ألفين ومئة متر أعلى جبال البورز، على مضيّق حافته الحادة على قمة صخرة عالية في قلب الجبال وتسيطر على وادي مرفق طوله خمسة وعشرين كيلومتر طولا، في طريق يضيّق ويلتف بصورة مخيفة، مقتربا من نهر آلموت، وكان علينا أن نتدلى على المنحدرات الشاهقة، ولذا فإن الصعود إليها كان شاقا جدا، فهنالك من جهة طريق واحد يقود إلى القلعة مما جعل فتحها أوان ذاك شاقا، وهنالك وعورة الطريق الحجري الذي يصعب اجتيازه بسبب التخريب الذي أحدثته حملة هولاكو في القرن الثالث عشر، كما أن الزلزال قد أتلف ما تبقى منها...

*

بعد أيام توجهنا إلى نيسابور...تغدينا في مطعم شعبي صغير، ثم توجهنا إلى مقبرة المدينة لزيارة قبر الشاعر عمر الخيام ...

قالت معصومة آصفي لن تكون سعيدا في الحياة وفي الحب والشعر دون أن تزور قبر مولانا عمر



فوقفنا خاشعين على القبر الذي يصعد متلويا إلى الأعلى مصنوعا من المرمر الأبيض والمينا الزرقاء المرسومة على شكل أوراق شجر، وطبقا للخواجة النظامي السمرقندي الذي كان تلميذاً للخيام وفي كتابه (جهار مقالة) الذي أخذ منه فيتزجيرالد، أن عمر الخيام قال مرة أن قبره سيكون في مكان تهب عليه النسائم الشمالية وينتشر فوقه الورد والزهر وكان النظامي يستغرب ما قاله الخيام ومرت سنوات طويلة بعد أن سمع عن موت الخيام فعزم على زيارة قبره في نيسابور بعد ثلاثة عشر عاماً من موته وفوجد قبره إلى جانب سور حديقة مهجورة وقد تدلت أغصان الأشجار فوق القبر ونثرت عليه من ثمارها وأزهارها حتى غطت أحجاره.

وها نحن واقفين أمام القبر الذي تحوم فوقه أسراب الطيور وتلقي بذروقها فوق رؤوسنا، إنه فأل الخير في النساء وفي الشعر، فمن تذرق عليه الطيور أمام قبر مولانا عمر، فأنه إما سيصيب قصيدة جميلة أو يحب امرأة جميلة...هكذا يقول الإيرانيون.

*

في الطريق شاهدنا الأبراج الزرادشتية الصامتة في يزد، جسور أصفهان والهندسة العظيمة لجامع الإمام، وفي منتصف الطريق بين مشهد وكرمان، كان الفضاء مفتوحا، والحافلة تقرقع على الطريق الخرب، فتوقفنا تحت شجرة جوز وشجرة توت، وكانت السماء بلون اللبن، ثم صعدنا إلى تلّ كان يخفي وراءه معبد نار زرادشتي قديم يعود إلى القرن الرابع الميلادي، وقد رافقنا أطفال قدموا من القرية المجاورة، طفلة صغيرة تضع خشخاشا برتقاليا في شعرها جلست إلى جانبي بابتسامة تعصر



القلب، وكنا ننظر -أنا وإياها- على طول الطريق أشجار الفستق المثمرة، والنساء القادمات من السوق وشاحنة طماطة مقلوبة على الطريق...ثم شربنا الشاي من السماور وأكلنا الفاكهة المجففة.

*

كل شيء في طهران منفتح على شكل لا نهائي وغير محدود، الشوارع الواسعة والكبيرة، الأشجار الضخمة، المنازل المتسعة والتي لا حدود لها، الثراء الفاحش، والفقر المريع...وما يميزها أيضا هدؤها العظيم، والصبر والطاقة التي جعلتها قادرة على امتلاك الحياة، بل جعلتها قادرة على تجاوز العقبات والانتصار عليها...طهران تمر بمرحلة خطرة، متذبذبة، بين تقليدها الجامد وبين تحولاتها المعاصرة، الحياة القديمة وجوهرها والحياة المعاصرة ومخاطرها، امرأة حائرة تسير خفيفة في الربيع النامي المزدهر، تستمع إلى أصوات جديدة، وإلى أنفاس بهيجة جديدة، الثقافة في كل مكان والكتب في كل مكان، والقراءة في كل مكان أيضا، في الباص، في الحدائق الكبيرة، في المنازل، وفي باحات المساجد...ولكنها لا تجد طريقها، هناك من يدعو إلى الإسلام..وهناك من يدعو إلى تركه، هناك من يدعو إلى الغرب، وهناك من يخشاه...طهران عالمان متناقضان...عالم من الخرافات والاختلاقات والأساطير، وشعب يعذبه عالم قديم بعفاريته الخبيثة وأعاصيره، عالم يدير ظهره للحاضر ضائعاً في زمن قديم، وعالم معاصر..منذور للحياة وللمتع الكبيرة، وللملذات الحسية ومنذور للجنس والحب والجمال، وكلا العالمين غير المتصالحين يؤمن بطرق غير مرئية، وحياة روحية قرمزية لا يناوئها، ويعرف أمام الشدائد كيف يبتسم.



كتاب الحشاشين
مقاطع من قصيدة طويلة

الجزء I
القتلة المقدسون في نيسابور

I

دعه يمر في الطريق على الطوائف، يحرق عشب الوزراء، ويهتك المحارم، وفي الليل يدخن الحشيش مع أتباعه الساعين إليه بدروعهم وحللهم وأزرارهم. في الليل يرتدي خفّه، و يدهسُ به في الصباح غضارة العشب، وعندما يرقص في ديوانه بين النساء يسفح على شفتيه نداوة الليل.

II

دعه يمر

دائرا على نقطة الذبح، دائرا حولها، على يمينها ويسارها، دائرا حولها على شرقها وغربها، دائرا حولها وهو يحمل درعه ورتاجه، كتابه وقناعه، صندله وجرابه.



دائرا حولها وهو يرقب في نيسابور هوداج النساء، دائرا حولها وهو يرقب قوافلها التي عبرت الطريق، وهو يرقب محملها الذي تبعته خيول السلابة البدو إلى الثغور.

III

دعه يمر

لبرد فضائل الصيارفة بالأيدي المبقعة التي تحمل الدنانير النيسابورية وملابس النساء، لم نكن فلاسفة ولا فقهاء ولا متكلمين ولا ظاهريين ولا شيعة ولا سنة، كنا أمراء دون دواوين، دون حلة مزركشة طرزت الجواري حواشيها بالديباج العباسي القديم وختم العبيد أزرارها بدم الغروب.

IV

دعه ينام

هذا الحسن الصباح ما نام عند غدرانهم وجنائنهم، ما نام في منازلهم أو في شوارعهم، ما نام في جحورهم وثغورهم، ما نام في مرابطهم ولا في ثكناتهم.

دعه يرد على الذين ذبحوا النزارية في قزوين وأصفهان، فعيناه ما غفتا في أسرة النساء المغوليات، ولا عند الجواري اللواتي بعثهن الهراطقة من الشمال.

دعه يدخن الحشيشة، ويطارد الأحلام، ويذبح بسيوفه المصلتة رقاب المرابطين على الثغور.



V

دعه يسرح بالزيت شعره ويسفح عند ماء الميضأة دم النبيذ.

دعه يسرح على السيف يديه، ودم المذبوح على ورق السنط، وفي الليل يسرح عمامة الفقيه.

دعه يسرح قدميه ووجهه الأصهب الذي يلصف مثل دينار، يسرح بحره وهو يشم رائحة الفتنة بيضاء على رخام المصلى، وهو يسدل شمسه مثل سيف على رقاب الذين سجدوا فوق بلاط المحاريب.

VI

دعه يمر

دعه يشم أبخرة الحشيش في ديوانه.

هذا أميركم لن يقتل السلاجقة هناك، ولا يبعث إليهم برجاله، هذا أميركم لن يذبح المرتدين بيديه، لكنه سيبعث إليهم بأساطيره. هذا أميركم يشم أبخرة الحشيشية التي تصعد ببطء من الآنية الفضية، وفي المدى يرتعد الصليبيون من بريق الخناجر في حدائق الجنة الأرضية.

أميركم هناك ينظر الذين بايعوه، ويمزق ثوبه بين أيديه خرقا.

VII

هذا أميركم ... ملك الحشاشين هناك

بيديه المتوحشتين اللتين تلهثان كان يذبح حراس الثغور.

يصنع من جلودهم نعله. ويلطخ ثوب العاهرة المقدس في جامع قم بدم فائر.



VIII

ما غفا الحسن الصباح عند النافورة التي لا تسبل أجفانها، ولا تجف، ما بكى أمام أمراء الطوائف ولا غفر حكمتهم في الكتاب.

ما بكى شيخ الجبل أمام الذين ماتوا غيلة وتلاهم الأتباع عند حقول السنط للتراب، ما رجفت يداه أمام الذين ماتوا عندما غفت عيونهم عند سفح خنجره، وعندما عسكرت حقول الأتباع دائرة بالإبل عند الغروب في الجبال.

IX

دعه يجلس على محمل مزركش ترفعه أيدي الأتباع الجافة مثل مصباح، دعه يذهب إلى أعدائه بخنجر واحد، دعه يذهب دائراً ظهرَه إلى شمس الصباح، وبيديه سيذبح الذين تمردوا، ويلطخ ملابسهم بماء الزعفران.

X

هذا أميركم قزم يجلس في ظلال سجفة، يمسك بين يديه أميرة شيرازية متفتحة، أميرة مصنوعة من شعاع قمر او من قطرة ندى.

هذا أميركم أورفية متفتحة، يطلق أجنحته في الهواء، ويصعد إلى السماء مثل غمامة من عطر.

XI

حشاشون.. مآثر مقتلهم على أيدي الولاة والسلاطين الذين يحملون



المصاحف المكية والبيارق، الصيف لا يغرّد على صخرة سمرقند ولا يطرز الوسائد التبريزية في الدواوين، هذا الحسن الصباح ينقش على الرقاع الجلد حريته، بحر يتسلى بخرقته الطويلة الزرقاء عند أقدامه، ويحتضنُ شجاعته، بحر يفرغر عند مسبحته ويلغ بلسانه مسبحة الفقيه حبة، حبة.

XII

في النهار هوادج النساء تبرك في الظل وتصغي إلى بلبل الحشاشين، هوادج النساء تصعد مع مطلق الصباح وتلتقي رغوة الزبد العالية.

XIII

دعه يجلس بوجهه الأصهب، يحبر بريشته الطويلة مخطوطة الأسرار.
نبوءة تشع من روحه، أبخرة تشع وترتفع من وجنتيه، ومن الذين صلوا عند الفاكهة الهابطة من الجنة
دعه يجلس بوجهه الأصهب ويرعى خرافا مدربين على الذبح.

XIV

نحن الذين قرضتنا أسنان القضاة.
مرت السنوات والعواصف انقرضت. انصرَفَ العالم عنا. قلبنا لم ينتبه إليه أحدّ. ولم يعرف أحد كم كنا نحب المعرفة.
نحن الذين قرضتنا أسنان القضاة وجوهنا غائبُة الفرح، كنا متغيرين في كل شيء وأوفياء لسيوفنا.



XV

نحن لم نعرف الإماء ولا الجواري ولا الخصيان الخرس السود الذين يتمددون عند باب الحرملك في شيراز أو عند باب السلاملك في قصور بغداد.

نحن لم نعرف التجار الفرس في اصفهان، وهم بلحاهم المحناة وخلفهم يحمل العبيد المظلات التي تقيهم لفحة الشمس.

كنا فقراء وديعين وعلى مقربة منا تنط حميرنا الصغيرة في الساحة.

XVI

ها هم الغرباء..الجائعون..يغيرون على البساتين ويسرقون البطيخ، غاراتهم العنيفة تخطف الهواء من البساتين. لا كتاب مثل جوهرة ضائعة، لا رئيس يتحمّل التضحية، وفي يد خادمته جوهرة وخنزير برّي.

من يبقى حتى الظهيرة حاذقاً في الخمارة، شيء يمكث في قلبه ويعلق مثل شجرة صمغية في الهواء، ورجل مجهول بعمامته وكتابه وقرطاسه يدخل من عراء البرد إلى الدواوين.

XVII

قال الخليفة المغدور هذه الفلزات لا تقبل الخلط، ولا يمكن للخيميائي أن يصنع الذهب.

قال الخليفة للرعية الذين يركعون عند قدميه: هذه كذبة المنجمين تعزف في النهار عفاريتها وأعاصيرها، وهذه كذبتكم. بينما الحسن الصباح يرقد هناك يقرأ كتاب الفاطميين ويدير ظهره ضائعاً بين أيدي الولاة المتعاقبين على البصرة.



XVIII

قالوا لا مناص من الموت ومن الركض على البحر، قالوا لا مناص من الطيران في الهواء، وهذه الفكرة الشيطانية لا تأتي من طرق مرئية ولا تعرف قياس الزمن، هذه الفكرة تأتي بفضل جسارة قرمزية، وشهوة خضراء.

XIX

اسماعيليون لا يناوئونكم، ولا يعرفون كيف يبتسمون لكم. فكرهم نحلة تغادر البستان من أجل فاكهة اسودت سلفاً. نساؤكم تساندهمم دون أن تخونكم. نساؤكم بين أيديهم يحلبن أعضاءهم ويرتمين على أسرتهم، أولادكم عبيدهم، وشيوخكم أسراهم، وهم يعبرون بحر الخزر إلى الرجال المتجمدين في الثغور.

XX

إسماعيليون لا يناؤونكم ولا يساندونكم ولا يعرفونكم ولا يغارون منكم، إنهم هناك على العشبة الندية في بساتين الجبل، وابن سينا يضع الدوارق على مقربة من عمر الخيام ويبكي على فكرة منتحرة.

نحن الحشاشين، وجوهنا لها ملامح رهينة ضائعة.

XXI

من له..وما تلا جبينه الأبيض عند خف الأمراء الجالسين في القصور، ما ركع في ساحاتهم على التراب، ولا في مساجدهم على



السجاجيد، ما ركع بين أيديهم التي ترجف في خراسان، ما ركع عند خفهم وهم يطئون السجاد المفروش في الدواوين، ما ركع في محاريبهم، ولا في مراحيضهم ولا في سررهم ولا في جنائنهم.

هذا أميركم طار على جواد مسروق وسابق في نيسابور أجنحة الرياح.

الجزء *II*

زهور سود للتقدمة أو موت نظام الملك

I

هذا سيف الشيعة بقبضته الفخمة وهو يخرق لبدة القاضي.

قال: " الباطن أمام الظاهر..".

لقد تجاوزت النهر مثل جسر، ونشرت الليل شبكةً لتصطاد به حراس القصور.

II

لا حق ولا عدل في الميزان، هذا الفقيه الذي يمد يده إلى الخصور، يحمل شاهدة قبره ويدخل خمارة أخرى تقع على مَقرُبة من السوق.

فاطميون يصدون هجمة أخرى قادمة من الشمال.

يجوز ما لا يجوز في شريعتهم، والكرى لا يأخذ الثملين ويُسرعَ بهم إلى النوم.

الكرى يأخذهم -عندما يقبض القضاة والفقهاء على أعمدة الرخام في المصلى- إلى خمارة جديدة.



III

في نيسابور يومٌ صافٍ جديد، يومٌ يحفرُ دهليزَه المضيء في سواد الليل، يومٌ يعلو الوجوه لتهليل الظهيرة.

IV

قال الظاهر أمام الباطن.

الثراء كان مهجوراً. الشجر لا يعرف غصنه، والكوسجُ كان بعيدا جدا عن سيوف الفاطميين، غير إن الإسماعيليين يعرفون بعضهم البعض، يعرفون القوس والنصل الذي رمته سفن المحاربين على الشاطئ، حين تقرّبت المراكبُ من جديد إلى الضفة، والقتلة المقدسون في الإسلام يسيرون محمومين وهم يتعثرون من السكر في الصباح.

V

الخنجر لا ينفذ في عمائم النزاريين السود ولا في دروع المغيرين في المساء على الجبل، وفي الصباح يتجمع المصارعون على حلبة السوق في سمرقند قرب دكاكين الصاغة ومحلات السراجين، يتناطحون برؤوسهم الحليقة وبأيديهم الضخمة يلوون الحديد.

VI

الناس يتجمهرون عند الحلبة ينظرون إليهم وهم يدورون على بعضهم بسراويلهم العريضة المصنوعة من الحرير، ومن آذانهم يتدلى الحلق النحاس، المصارعون يتلاوون بأذرعهم المفتولة مع الأحناش والتنانين، وفي الخمارة يبكي الحشاشون على الإسماعيلية المغدورة.



VII

صبي السماء هبط على الأرض ليصنع للرجال جنة الحشيشة، صبي السماء يغريِ المصارعين في حلبة البازار لدخول النجوم، وفي صدره وشم مثل الثريا مشعا وقاسياً، ها هي أذرعهم معروضة في السوق، ها هي صدورهم العريضة حالمة مهاجرة من مدينة إلى مدينة، مهاجرة من شهرستان إلى الجنوب.

VIII

بعيداً عن قطاف الفلاحين الفرس في نيسابور وشيراز، بعيدا عن الأمراء العباسيين وصورهم التي يرفعها الأحباش على سيوفهم، بعيدا عن الطوائف الذين يصلون في المحاريب، بعيدا عن التركمان والأكراد والجرامقة وهم يشمون رائحة الفتنة على الرخام، يحدث أن يلتقي هذا المساء بربه، ذراعاه مشغولتان طوالَ النّهار بخرقة سوداء وعريشة هشّة.

IX

النساء يتجمعن عند حلبة السوق يشتهين رائحة المصارعين المتوحشة، وعلى العضلات يقرأن تطاعن الأفكار.

X

قم وابك على وجهه.

على خنجره ..على يده التي لا تمتد إلا وهي مقطوعة من الرسغ..لثوبه الذي لا يطير إلا وهو مزق..هذا النّهار على أجنحة الوسائد



الملقاة في الدواوين، والكؤوس لا تدار إلا مع غلمان نادرين، وجوار لا يخطئها الفقهاء ولا الملوك ولا الصائمون في المساجد.

XI

عمر الخيام طوال ليله يستندُ إلى الكلمات التي صنعت الحسن الصباح ونظام الملك...قال:

لا شيراز ..لا نيسابور.. لا سمرقند.. تحيي النهار لحظة يطير مع البلابل، أو عندما يشاء النهار، لحظة يحلق من شجرة إلى شجرةٍ، من بحرٍ إلى بحر، من بخارى إلى الشام، والفاطميون لهم صبغة أخرى تشبه لون الغيوم.

XII

نظام الملك يذهب إلى الأماكن التي لم يذهب إليها أحد، إلى الغرباء الذين لم تتعرّف إليهم الملائكة بعد، ذهب هناك ليتقبل الأسماء والأفعال والحروف، يطأ الكواكب التي لم يطأها أحد، ويأكل السماء التي ابتلعها الإله توا.

نظام الملك..هو العابرُ المهذَّبُ الذي يتعجّل الوداع، قتله النزاريون لأنه شم رائحة الخبز النيء الذي لم يخرج بعد من التنور.

XIII

قال نظام الملك: "لا نظام ولا ضلالات أخرى.."

لا فقيه ولا ملكا ولا شيخا ولا جبلا، سعيد أن يكون لشعرك نظيرٌ



آخر في الخمارة التي لم يغادرها بعد، وللخمرة التي لم يتعرف الغرباء عليها كل يوم.

إنك لا ترفع الصوت أمام القتلة المقدسين في الإسلام، ولا أمام الفقهاء ولا أمام السلاطين، إنك ترفع صوتك أمام الخوندارية، وعيون الغيلان التي يدسها الإمام.

XIV

عند الظهيرة، حينما ينهي القضاة جلساتهم ويأمرون بإعدام الحشاشين، تهرع النساء إلى السوق، يجمعن في باطية الخمرة قطرات عرق أجسادهم الذهبية، داعية أذرعا أخرى تسرق الخناجر وتنقض على الهاربين من الحراس.

XV

في نيسابور روح تحلق على محفة كبيرة مذهبة.

نار وحشيش تتقد في الظلام.

خنجر مجرد يلامس الخواصر، و على القلاع المحززة السوداء كان الأمير مشنوقا من حمحمته، تلعب به الريح مثل غصن صغير ولحيته الطويلة ترفرف في الهواء.

XVI

وجه ينظر قمرا أسود في النهار، عمامة سوداء تظهر وتختفي، وأنف الإمام يشتعل من الرعب مثل دينار.



إنه الكلب الذي يعوي، والجدجد الذي يوسوس، وهذه إذنا نظام الملك المشنفتان من الخوف

في غيابة الصمت، وجهه الجامد يرتجف أمام الوقت الذي يمر مثل أبرص يتأوه في المساء.

XVII

قالوا لا خوف عليه.

نظام الملك سلك طريقا صغيرا أمام الحشاشين الذين أصداهم المطر، واضجرتهم ريح خراسان الباردة، والحسن الصباح غفا حين أطفأت آخر شرارة وميضها في رماد الموقد. وكان الموت يقلب سحنته الصفراء ويمد لسانه الأحمر مثل مشنوق.

XVIII

هذا قصره الذي صدعه الضياء، وغابته النيسابورية التي خزقتها الطرقات المتعرجة، هذه شهقته الإمبراطورية المتفجعة، صرخة أتباعه الباكين، والضحكات الشرسة للحسن الصباح التي ترعش الأوراق على الشجر.

هذه صلوات التائبين السود، والمصحوبة بصراخ مجرم في السجن، وآخر كلمة تلفظ بها نظام الملك.

XIX

إنه يلفظ أنفاسه ممدا بين أيدي الفلاسفة والفقهاء،

محتضرة تصارع معلقة على اغصان شجرة. هذا الحارس الذي يشق



وثاق نظام الملك، ويشد الأمير على قضبان عجلة. حجرة فيلسوف ميت. وعشيقته ستدفن بثوبها الأبيض بين كتاب السياسة وأربعة مشاعل.

XX

هذا نظام الملك الذي قتلناه.

عصا الطاعة التي تمزق باول ضربة جلده فيطير مثل زجاج.

روحه التي انطفأت مثل مشاعل الفاطميين تحت سيول المطر.

روحه التي تابعت مسيرها مثل ورقة في الجدول، بينما تابع الحشاشون أحلاما اخرى نحو الصحوة.

الجزء *III*
كتاب ابن سينا

I

أنت لم تعد حتى الآن من فنائك، لم تعد من عدمك، من ميقاتك، من وجودك، ها هي عمامتك وهذا صندلك، هذه هي عصاك وتلك كتبك، وأنت لم تعد حتى الآن من نورك وعتمتك، من قبرك وبيتك، وترابك، أنت لم تعد حتى الآن من فكرتك، من مطلقك، من وجهك الآخر من الوجود.

II

أنت لم تسترح حتى الآن في قبرك، ولا في إنشائك، ولم تكف عن الوجود، أنت لم تفكر بنا مثلما تفكر بعدمك، تفكر بشهية الكائن



بالدغدغة المشغولة بأعصابك وإعصارك، بالحياة، بأمر واحد فقط هو أن تعيد إلى الكائن شهوته، ونقطته وتستريح في عدمك، بالألم الحقيقي الذي تصنعه الأفكار، ليس بالموت تماما، بأمر قاس حينما لا نكون موجودين، بما يشغلك من عذاب، هذا هو عالمك البعيد والغريب، هذا هو عالمك، وأنت لم يصعد من قبرك إلى السماء سوى ومضة.

III

بلهاء تتقدم لسانك، بلهاء تلغي كل فكرك وتأملك وصمتك، وتعثر على نفسها من خلال تلعثم أو خدر لسان، من خلال سوء تركيب ولجلجة، من خلال أشياء كثر، بمقدار من الطيش بكلام لا تستعمله، ولا تستحضره ولا تلغيه. من أنت؟ فكرة وحيدة، فكرة في مطلق غير محدد، مطلق من يحده؟ من يصل إليه؟ من أنت مفردة واحدة؟ اسم، أم لاحقة هذا الوجود؟ كلمة لا معنى لها، كائن؟

IV

من أنت..فكرتي أم فكرتك..أم فكرة في الغياب، في العدم، في ضمير الله؟ محاصر أنت من لغتك، من مفرداتك وأفعالك وكتبك وأحجارك وأعشابك، من عدمك ومن الفكرة...أنت محاصر مرة أخرى بوجودك، محاصر بعدمك.

موتك عناق يرتخي، روح عبثا تحاول أن تحلق مثل فكرة.

طهران ٢٠٠٥




مكتبة
الفكر الجديد

ترانزيت، حقائب، وشعراء

كان والتر بنيامين أول من أدرك بعبقريته الفذة أن تحولات الفن الشعري شبيهة بالترانزيت، أي إنه العبور المعمم من حقبة شعرية إلى أخرى، دون الرغبة بالهبوط إلى أرض محددة. فالتحول أبدي، والانتقال أبدي، والترانزيت هو السمة المعممة القصوى. ولكن هل تجتاح الحياة الرغبة المعممة إلى ترانزيت آخر، هل يجتاح الشعراء حلم الرحيل، والرغبة العارمة والأبدية إلى ترانزيت المطارات، والجغرافيات، والبلدان، والعبور من مكان إلى مكان، مع الحقائب الجلدية المحزومة بالملابس الأثيرة، مع الكتب المفضلة، مع العطور وأدوات الحلاقة، مع الأوراق البيض التي تنتظر الأفكار لتسودها، مع الأقلام التي تنتظر الأصابع، والدفاتر التي تنتظر الحبر الذي يسود سطورها.

"العالم محتشد بالمطارات،

ومطارات العالم محتشدة بالمسافرين والمترحلين".

هكذا كتبت مارغريت بلاكمور في رسالة بلاغية طويلة إلى مفكر تبتي عجوز يقبع منذ ستين عاما في سقيفة خشبية جنوب مدينة بكين في الصين، لم يغادر هذا العجوز الكونفوشيوسي سقيفته التي لا تحتوي إلا على أقل ما يديم الحياة، أبدا، لم ينتقل من مدينته إلى المدينة



المحاذية والتي لا تبعد سوى فرسخين ونصف عن مدينته المستقر، بقي في المكان ذاته، على الكرسي ذاته، على الطاولة ذاتها قرابة نصف قرن، ولا يتذكر من مدينته التي لا يحبها كثيرا غير الشارع الذي يقطن فيه، حيث يذهب كل مساء إلى حانة في الجوار.

في التقابل مع العالم المتحول هنالك عالم ساكن ومتجذر وأبدي، في التقابل مع العالم الجامد هنالك عالم متحرك ومتنقل ولا ينزع على الإطلاق إلى قرار، هكذا نجد أنفسنا على الدوام أمام هذه المعادلة البشرية الصعبة، المعادلة التي لا تصالح فيها ولا تواطئ ولا قبول وهي معادلة متعاكسة، ومتناقضة، ومتضاربة على الدوام.

في كتابها "سيمياء الرحلات والسياحة الثقافية" تقول جين شيفريون:

"علامة الترحل هي النقطة الأبهى في النظام الثقافي للحضارات"

إذن ماذا يقول الشاعر القلق المتنقل أبو الطيب المتنبي لساكن مقيم ومتجذر مثل أبي العلاء؟

هل هو القلق البشري فينا أم هو القلق الشعري في كل إنسان؟ كما يتساءل جيروم غام في كتابه الشعري الشهير: "على الحقيقة أن تكون خضراء". إنها الرغبة للانتقال والتحول من عالم إلى عالم، من بلد إلى بلد، من مطار إلى مطار، من شارع إلى شارع، ومن مدينة إلى مدينة، عبر الانهار والبحار والمحيطات، عبر أطالس لا تنتهي ولا تحد، ولكن هل هو القلق البشري الذي يولد فينا كل هذا النزوع إلى الانخلاع، وعدم الاستقرار، واللاثبات؟ هل هو القلق الشعري الساكن فينا هو الذي يبعث فينا الرغبة في السفر والتشرد والترحال، بماذا يختلف المتنبي إذن عن فاسكو ديغاما، وبماذا يختلف رامبو عن ماجلان؟



هل نحن في عالم مسكون بالبداوة المعممة، نعم إنها البداوة هذه الكلمة-المفتاح التي كرهتها الحضارات بأجمعها، وشنع بها المفكرون على اختلافهم، من ابن خلدون إلى بروديل؟

غير أننا بدو، في نهاية المطاف، الروح البدوية التي تجعلنا مسكونين بهاجس السفر والرحيل، مسكونين بتحولات الحياة، والألوان، والملامح، مسكونين بعوالم جديدة، ورؤى وعرة تنزلق نحو الدخول الحذر إلى مناطق محظورة، مسكونين بالتلصص على عالم آخر، لنصبح شهودا آخرين على عالم جديد، شهودا على عوالم بصرية وحسية جديدة، على شخصيات، ديكورات، ألوان مختلفة.

"مدن تضيق على الأجساد،
ومدن تنفتح لأجساد جديدة"

هكذا كتب بول تسيلان في واحدة من أجمل قصائده، إنها سنوات تمر مخلفة بقايا عطر المدن، وصورا، واكسسوارات، ورغبات، وهنالك في المطارات عالم ضاج ينحو في الذاكرة إلى الرحيل إلى عالم أخرس.



آثارنا مهاجرة في قبرص

"قبرص.. بحارها هادئة" قالت لي صديقتي اليونانية التي أشعلت سيجارتها من سيجارتي ووضعت حقائبها الجلدية على كتفها ومضت...كان ذلك في مطار أتاتورك في اسطنبول، وهي عائدة إلى أثينا..طبعت قبلة على خدي وغادرت مسرعة إلى بوابة الممر الذي يقود إلى طائرتها.

بقيت ساعتين في المطار، كان السياح القادمين من كل مكان يملئون الباحة الطويلة التي تنتهي بأكشاك موظفي المطار، تمددت على المصطبة من التعب والإرهاق، ونمت، حتى شعرت بأصابع شابة على كتفي توقظني، ربما تفوتك طائرتك، شكرتها، أخذت حقيبتي وهرعت إلى الممر الذي يقود إلى طائرتي وبعد ساعة ونصف هبطت الطائرة في لا رنكا.

لم يكن الخليج المرجاني والأكاماس أقل هدوءا من الشاطئ، غير أن سلاحف البحر الصغيرة عشعشت في الرمل. و بيترا روميو في جنوب الغرب ممسوحة بمشهد الغروب الذي لون الشريط الساحلي الصخري.

هذه ليماسول..كما لو كان الصوت يأتي من التاريخ لا مني.

هذه بافوس الشواطئ العائلية الصغيرة التي تنقّط الشريط الساحلي بالمطاعم والمخيمات والفنادق الصغيرة، كوريون القديم في قلب



ليميسوس والعائلة القبرصية غطاها ضحل البحر ثم غسلتها الموجات المتعاقبة حتى تبدد الزبد على الساحل... لم نبتعد كثيرا عن الشواطئ، كانت المراكب تجيء وتذهب، وبعض السياح في الحديقة الأمامية للفندق يلعبون الكرة الطائرة، وعلى مقربة منهم ممرات خشبية تقود إلى الأسرّة ومسابح الشمس التي تعرضها الفنادق أمام الواجهة المائية للبحر.

*

هذه نجمة المتوسط، شقة بيضاء هادئة في الصيف الحار تشق البحر، يونانيون أتراك عرب وسياح من كل مكان في العالم، موائد قمار، بيوت دعارة، صحف مجلات، أوكار الجواسيس والمخابرات شركات وهمية وأخرى حقيقية، مهربون، خائفون، سياسيون، هاربون، باعة فقراء، كسبة، معلمون، غرباء من كل مكان، قبرص بلد من لا بلد له.

*

انطلقنا إلى قرية فاروس قرب لارناكا، إنها مياه قبرص الهادئة. غصنا أنا وصدجيقتي في البحر حتى لامست أصابعنا حطام الباخرة زينوبيا التي غرقت في خليج لارناكا في العام ١٩٨٠، وفي أقصى شرق قبرص استمتعنا بالفضاء المشرق لأجيا، ونابا ومياه البيجساند وشريط لبروتارا الذهبي، وخليج رأس بيلا، رأينا الدلافين التي تعوم هناك، ترتفع في الهواء إلى الأعلى ثم ترتطم في سطح الماء هابطة إلى الأعماق، تصعد وتقهقه مثل الآلهة اليونانية.

قبرص مملوءة بالمواقع والكنوز القديمة؛ أنت لست بحاجة إلى أن تسافر إلى الطريق المضروب لإيجاد كوريون، بفسيفسائه ومسرحه في الهواء الطلق، المسرح المبني كليًا من الحجارة، أشبه بفندق يشرف على



البحر المتوسط الرائع، أو حصن بافوس القديم. في صباح ليماسوس الجميل ذهبنا إلى متحف قبرص الكائن من القرون الوسطى، زرنا متحف الفنّ الشعبي، وقلعة ليماسوس التي تحتوي على المصنوعات اليدوية، ذهبنا إلى موقع كوريون الآثاري، وفي المساء ذهبنا إلى مسرح جريكو القديم والمشيد منذ العصر الروماني، ويشرف على البحر المتوسط.

*

في صباح أحد كانت الشمس تتسلل من ستائر نافذتي، رن جرس الهاتف، كان صوت صحفي لبناني يدعوني لزيارة مواقع صحفية عربية في نيقوسيا، وزيارة بعض الشخصيات العربية التي تقطن من زمن بعيد، شخصيات إعلامية، سياسية، تجارية، صناعية، ثقافية، دينية...ضاقت الأوطان فاتسعت قبرص!

أجمل ما في قبرص الحصون الفينيقية القديمة المشيدة في القرن السادس عشر. قال لي تلجر عربي يقطن قبرص منذ أكثر من عشرين عاما.

هل ستعود إلى بلادك؟ فأطلق حسرة تشبه المستحيل.

كنا نمر قرب الدكاكين الصغيرة جنب المقاهي والحوانيت ومتحف المجوهرات، كنا نتمشى في المدينة ونحن نستمتع بمشهد الأزقة والمساكن القديمة ذات الشرفات المزخرفة التي تبرز من جدران الحجر، كنا نسير في حي «لايكي يتوتيا» نيقوسيا القديمة.

-أحب هذا المكان لأنه يذكرني بمدينتي.

أما دكاكين التاجر العربي ومحلاته فقد كانت تحيط بهذا الحي القديم...وأخرى في المدينة الحديثة التي تعد مركزا عالميا للحضارة،



وتعتبر مركزا للمحلات التجارية وتشتهر بمطاعمها المختلفة وتوجد بها سلسلة من المؤسسات العلمية الدولية وأماكن اللهو والترفيه، ثم حدثني عن حياته، فقد كان سياسيا أول الأمر، تعرض للسجن في بلاده، فهرب في السبعينيات إلى قبرص، عمل في الصحافة أول الأمر ثم في التجارة، وهكذا ترك السياسة وأصبح ثريا كبيرا في قبرص ولكن لا عودة للأوطان.

كنت في متحف قبرص أنظر إلى بعض اللقى والآثار العربية هناك، كنوز مهاجرة من خلف المتوسط لتتربع في قبرص، ينظرها السياح والآثاريون ويلتقطون لها الصور من خلف الزجاج، أحجار ثمينة من سوريا والعراق ولبنان...آثار عبرت الصحارى والبحار والجزر لتستقر في نيقوسيا ...

آثارنا مهاجرة أيضا...قال لي الصحفي اللبناني وهو يضحك.



من مارسيليا إلى إكس بروفنس
أسطورة المعنى والأعراق المختلطة

على خطا الطهطاوي... سرت... على آثار أقدامه، في الظل الذي تركه، في المقهى الذي جلس فيه، في شارع الأورينتال الذي تحول إلى قاطنين عرب ويهود وأفارقة وفرنسيين، في المطعم العربي الذي أصبح يقدم الفتة والفلافل، في المركب العربي الذي اسمه طنجة، في الأغنية المصرية التي تصدح في البورت فيو... على خطاه سرت... وهو يتراءى لي من بين الشوارع المكتظة المزدحمة بعمامته الأزهرية الصغيرة، وملابسه التقليدية... مسوح المثقف التقليدي... أو بطل المطالبة بالحداثة في الإسلام...

*

من محطة سان شارل كنت أتطلع إلى الشارع العربي الذي يمتد من المدرجات الرخامية التي تصل إلى أسفل... الهجنة.. ربما لم تفهم ما أعنيه، غير أني كنت أنظر إلى أعراق أفريقيا وأوربا كلها فوق هذه العربسة البيضاء، حيث يتكرر الصوت منذ القدم، صوت الباعة المتجولين وهو يمتزج مع صوت زحافات البواخر التي تصل رصيف المرفأ، زقزقة العصافير التي ترف بصوت متصالب في الفضاء مختلطة مع



هورنات السيارات، صوت الموسيقى النابضة وهي تتداخل مع الهمهمات الهاربة لبائعات البيبسي في سوق الظلام، وأصوات العاهرات المغربيات وهي تتداخل مع صوت القواد المصري الذي يجلس على كرسي من الخشب في شارع الفترينو..ويضع أمامه بسطة لبيع السجائر والعطور.

كنت أشعر بأمواج المتوسط وهي تهدر على الساحل، كنت أشعر بالشمس الأفريقية العظيمة وهي تسقط بأعمدة مخروطية، فتضيء هذه الجملة الإلهامية أمامي، كنت أشعر بهذه الصورة الساكنة وهي تبزغ مرة أخرى من أسطورة الأعراق لكنها بطريقة معكوسة تماما، إنها تبزغ هذه المرة من أفريقيا وتتجه شيئا فشيئا نحو أوربا...كان يتحدث كما لو كانت أفريقيا تنفتح على مشهد من القرن التاسع عشر، تنفتح على مأدبة للمرتزقة وللوكلاء التجاريين وللمستعمرين الذين يخططون لاجتياح الأرض.

في تلك اللحظة شعرتِ وكأني أطوف مستعمرات الطليان في بنغازي:

منازل تبتل بالمطر، وواجهات متاجر تفوح منها رائحة البويت والزيت المغلي، سائق عربة أعور في طريقه إلى طبرق، حوذيون زنوج، قبائليون، وشعب من المستعمرين البيض في قلب بنغازي، إنها المدينة الرومانية التي بشعتها الأخطاء المقدسة:

*

غادرت مارسيليا في الصباح الباكر، كانت المحطة الرئيسية مزدحمة بالمغاربة الذين يرمون طراطيرهم إلى الخلف، وباليهود بقبعاتهم السود وملابسهم السود وقبعاتهم، رجال، نساء، وصوت القطار يجأر لكي يشعر المسافرين يتحرك قطار إكس آند بروفونس، في الجنوب يكون



المتوسط أزرق صافيا تحت الشمس الساخنة، وفي الشعاع الأصفر، والعرب أكثر ما تميزهم من هذا الخليط المتوسطي الذي يشبه مأدبة المرتزقة في سالامبو، بوجوههم الصامتة بأيديهم المعروقة وملابسهم التي حافظوا عليها أينما ذهبوا.

حين هبطنا في إكس آند بروفونس كان المشهد مختلفا نوعما من مارسيليا الجنوب العربي والمتوسطي غير أن المغاربة والتونسيون يشكلون المشهد أكثر من مارسيليا الجزائرية، ويمكنك أن تميز أسماء المطاعم أيضا، من مطعم كباب إلى ألف ليلة وليلة أم كلثوم الرباط كاتب ياسين الحمامات...الخ وفي ساحة ميرابو يكون القصر القديم والكنيسة القوطية بسلمها العجيب ومتحف سيزان الذي ولد فيها أما شارع كاردنال فتقطنه الكاتبة الفرنسية الأشهر في الوقت الراهن بول كونستان ، سألت صاحب مطعم مغربي عنها المنزل.

تريد منزل الست بول يا مرحبا في شارع الكردنال قرب متحف سيزان، وأكمل أعرفها وأعرف زوجها السيد أوغوست هنا يأتوا عندي وحتى أبناؤها ثم ذهب أخرج لي صورة لطفلين صغيرين وقال هذه صورتي مع أحفادها.

سرت في شارع الكردنال حتى وصلت متحف سيزان كان السياح يتجمهرون بشكل ملفت على المتحف قال أحدهم إن الحجز يتم قبل شهر للدخول...فهذا العام هو مؤية سيزان والمدينة تعج باحتفالات الفنان البروفنسالي الكبير: مجلات، بوسترات، مسرحيات، عروض موسيقية... كلها تستوحي أعمالها من لوحات وحياة الفنان بول سيزان، أما صورته فهي معلقة في كل مكان تقريبا، بورتريه الذي رسمه لنفسه بلحيته وقبعته الشهيرة وغليونه تجدها في كل مكان.



ثم أشاروا لي إلى محل يبيع سوفنيرات ولوحات مصورة وجلات عن سيزان، حينما وصلت فوجئت أن البائع لبناني ، كان رساما هاجر أثناء الحرب الأهلية ثم اشترى عروضا مرصخة لوكالة بيع كل المطبوعات التي تخص سيزان وأجمل ما قاله لي:

-انظر فرنسا دولة عربية.

وكان يعرف منزل بول كونستان بطبيعة الأمر وأشار لي إلى فندق كبير يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر، البناية ٢٩ من شارع الكردنال في إكس آند بروفونس، طرقت البوابة الضخمة، فاستقبلني الكاتبة مع كلبها أنجلو وهو من سلالة كلاب الكاتبة الفرنسية الشهيرة التي عاشت في القرن التاسع عشر كوليت، ثم أرتني كتابا كان موضوعا على الطاولة اسمه الكلاب المشاهير في عالم الأدب، وآنجلو كلبها هو من سلالة كلب كوليت المشهور.

-ها أنت تقطنين في منزل قديم...هل هو استيحاء من روايتك الغابال العظيم وهي عن النساء في القرن الثامن عشر، أم من كتابك العالم من استخدام النساء.

-ربما الرواية من وحي المنزل، هذا المنزل هو منزل رسام في القرن السابع عشر، كان رساما للملك أوانذاك، وما زلت احتفظ ببعض لوحاته، في المنزل في في الصالة وفي المكتب، كتابي عن نساء القرن السادس عشر فكنت معنية بالأميرات والارستقراطيات العظيمات فلو لاحظت أن كتب الرجال في تلك الفترة تدور حول فكرة الحرب والغزو والاحتياز...العالم، كعالم وكفكرة كان هو موضوع استخدام النساء في ذلك الوقت، فهنالك المرأة والموديل والأسطورة واحتلت المرأة الأرستقراطية كل شيء في ثقافة القرن السادي عشر الأميرات



الأرستقراطيات لسن كل النساء، ولكنهن احتلن كل شيء في ثقافة القرن السادس عشر من كل الإنسانية اختيرن ليكن مذبحا مؤقتا لفضائل الأنوثة، كما لو إنها ضامن الفضائل النسوية العظيمة، على مدى العصور كانت تحصل على عناية واهتمام غير محدودين، لقد حصلن على تعليم راق جدا، وحصلن على معارف جمة، واحتل قدرها أرواح أكثر الناس شهرة في ذلك العصر، وقد أصبحت الدموزيل، أصبح العالم كله في متناولها، أما بالنسبة لرواية الغابال العظيم،

-أنت تنطلقين من فكرة أن العالم يشتم المرأة ويقدسها في آن واحد.

-بالضبط هذا ما ذكرته كريستيان دوبيشان.

-نعم ولكن إلى حد كانت كريستيان دوبيزان معنية بالأسطورة الأنثوية ، وهنا أسطورة النساء المحاطات بالجلال، وهي تكتب كتابها مدينة النساء وأنا لا أريد أن أذكر قصة نساء الأمازون، وأنت ذاتك عملت فلما مدهشا عنهن، لكن الأسطورة من حيث تجسيدها في عمل كريستيان بيزان، أي المرأة الأولى التي تأخذ بيدها مرآة والثانية تحمل السفرة، والثالثة تحمل المزهرية المصنوعة من الذهب الرقيق، وأنا ألمح هنا إلى اليوتوبيا...

-أنت محق فيما يخص المعنى الظاهر ولكن لو عدنا إلى الرمز سنرى الأمر مختلفا قليلا، الرمز الأول يعود إلى العقل الثاني إلى العدالة، والثالث يعود إلى الاستقامة..وهنا أيضا الرسالة أو الشفرة، فهذا السر محمول ومعطى كرسالة من السماء لهن لبناء مدينة النساء la cité de ce monde والتي تفيد بأنها ملجأ للفضائل الأنثوية والتي تركت منذ زمن بعيد، وفتحت كحقل من غير نطاق ومهزوم بسبب أخطائه الدفاعية.



مارسيليا.. شاعرة الجنوب

وصلت محطة السان شارل صباحا.. هبطت الدرجات الرخامية التي تقود إلى الشارع الكبير والمقطع بالأشجار العملاقة. شوارع صغيرة ومزدحمة ترتبط به. كانت التماثيل الرخامية على الجانبين ومن الأعلى تبدو مارسيليا مستلقية على البحر اللازوردي... سرت في الشارع العريض...كانت المحلات التي ترفع إعلاناتها نشطة وحيّة. المكتبات الكبيرة مملوءة بالكتب على طول الشارع من عند الكاتدرائية الكبيرة وحتى الميناء القديم. الهندسة المعمارية لمبنى البلدية قديمة ومدهشة ذكرتني بإسبانيا الجنوب. الشمس الذهبية تلتقي من بعيد باللون اللازوردي للبحر المتوسط. من بعيد يلوح أجمل ميناء على الأرض، إنه المرفأ الشهير لسفن الصيد، الميناء القديم أو البور فيو...الجزء الأكثر روعة من المدينة، حيث الحي الشعبي من الناس المحليين والسيّاح.

-ربما لم يعد هو النشاط التجاري الكبير كما كان، لكنه ما زال مملوءاً حتى الآن بسفن الصيد واليخوت والعبّارات بين مارسيليا وكورسيكا، وساردنيا، قال ولفرد فنكل... البحار بملابسه الرثة وقبعته التي تنتمي إلى بحارة الثلاثينيات من القرن الماضي يعرف كل شعراء المدينة، وكل الشعراء الذين يمرون بها.



دون اسمي على ورقة... وسأل:

أنت شاعر أليس كذلك؟

ثم تمتم: أنا أدون اسم كل شاعر هنا...وما أن يذكر اسم أمامي حتى أقول نعم هذا الشاعر مر بمارسيليا في العام كذا...ثم غنى لي قصيدة لبيير لويس: دامت العاصفة طوال اللّيل. سيلينيس ذات الشعر الجميل، جاءت لتهرب معي...

كان وجه البحار القديم مثل البور فيو يذكر دون شك بانطونيو غامونيدا بوجهه العجوز القاسي، وهو يقول: هاهو القمح، قيلولة الأفاعي...

هل تعرف غامونيدا؟

- طبعا...قال وهو ينظر جهة المطاعم والمقاهي التي تشرف على الميناء. كان يمكننا أن نراقب حركة اليخوت على البحر من خلال شرفات في الهواء الطلق، أما البقعة المثالية للمراقبة هي رصيف المرفأ، حيث جلسنا أنا والبحار ولفرد وأكلنا شوربة السمك اللذيذة بويبيس والمطعمة بالخضار...ومن هناك كنا نتطلع إلى الشارع العربي الذي يمتد من المدرجات الرخامية المنحدرة إلى نهاية البور فيو...وفي الأفق كانت أشرعة السفن تمتد على طول محيط المرفأ، قال لي: هل تعرف إن الشاعر اليوناني أوستريياس قال يوما أن مارسيليا هي الهجنة...حين قالها ذلك الوقت لم يفهم أحد ما كان يعنيه...

سرت في الطريق المحاذي للكورنيش الرطب مختصرا شارع الأورينتال، وكنت أستمع لأصوات مختلطة في الفضاء...حيث يتكرر الصوت منذ القدم، صوت الباعة المتجولين وهو يمتزج مع صوت زحافات



البواخر التي تصل رصيف المرفأ، زقزقة العصافير التي ترف بصوت متصالب في الفضاء مختلطة مع هورنات السيارات، صوت الموسيقى النابضة وهي تتداخل مع الهمهمات الهاربة لبائعات الملابس في سوق الأورينتال، وأصوات المغربيات وهي تتداخل مع صوت العامل الزنجي الذي يجلس على كرسي من الخشب في شارع اليهود...ويضع أمامه بسطة لبيع السجائر والعطور.

من ميناء البور فيو كنا ننظر إلى كاتدرائية نوتردام دي لا غارد، المشيدة في القرن التاسع عشر، والتمثال الذهبي لمريم العذراء يحرس كلّ البحّارة والمسافرين الذي يمرّون إلى جزيرة فريول حيث سجن هناك الكونت دي مونت كريستو.

أشار ولفرد فنكل بيده في جزيرة فريول...ذلك هو السجن...كنت أنظر في العتمة التي قبع بها الفارس العظيم كريستو كما لو كنت أنظر إلى ظلي وهو يرتسم على الأرض الحجرية الخشنة...من غير المحتمل أنّ تلتصق الأشياء العظيمة بهذه المدينة الساحرة كما يلتصق الوسخ بالجلد...أما المحطة الرئيسية فكانت مزدحمة بالمغاربة الذين يرمون طراطيرهم إلى الخلف، رجال، نساء، أطفال، أعراق مختلفة، مهن متنوعة، أزياء عديدة...بينما كان صوت القطار يجأر لكي يشعر المسافرين بتحرك القطار الذاهب إلى إكس أون بروفونس، إنه الجنوب حيث يكون المتوسط أزرق صافيا تحت الشمس الساخنة، والعرب هم أكثر الأقوام الذين يمكنك أن تميزهم تحت الشعاع الأصفر للشمس، من هذا الخليط المتوسطي الذي يشبه مأدبة المرتزقة في سالامبو، يمكنك أن تميزهم بوجوههم الصامتة أبدا، وبأيديهم المعروقة الجميلة، وملابسهم التي حافظوا عليها أينما ذهبوا.



خاتمة

بعد نهاية كل رحلة من الرحلات، وبعد أول عودة لك، ستجد تنوير القلب أكبر من تنوير العقل، تجد نفسك مضاعفا لا بسبب المعرفة...فربما تعود وأنت أقل معرفة مما مضى، ولكنك تشعر بأنك تغيرت، فالرحلة الحق هي التي تشعرك بالتغيير، تشعرك بدماء الآخرين وهي تجري في عروقك، النموذج الذي تحبه وقد أصبح ميزان الأعصاب على حد تعبير أنطونان آرتو، تجد نفسك في الحياة ذاتها، أو فيما يجب أن تكونه، وربما تكمن الاستشهادات هنا في المحاورات ذات الفضاضة الملحة والتي تتوافق مع الإطار الزخرفي الجميل والحي للحياة، والنساء، والدكاكين، والحدائق، والجوامع، والشوارع، والفنادق، والنهارات...

وهكذا تتعلم مع كل رحلة أن العودة هي غير الوصول، والشعور بالخيبة والمرارة لا يتوافق مع الفرح الجميل بالفن، وبالفضاء الذي يمنحنا لغة جديدة وأسلوبا جديدا، ثم يولد نصوصا تتعلق بالكاتب وبالحياة، حيث يعبر النص هنا عن علاقة الفن الحميمة بالحياة...وربما تصبح هذه العلاقة وللمرة الأولى مقبولة ومباركة... وهكذا نقترب في نص الرحلة من تحديد مفهوم للفن، أو على الأقل من تحديد مصدر الفن، فالعمل الملهم يجب أن يكون على علاقة ما بالدهشة والاكتشاف، ذلك عندما يصبح الفن مجرد تقليد لمظاهر العالم فانه يكون واقعيا وبالتالي خلوا من الإلهام.

ما هو مهم، هو المضمون الذي يعطي الفكرة وضوحها الجارح، ويعرض



تناقضاتها، ذلك لأن المجهول الذي ننطلق لاكتشافه غير مهم قدر إزاحة تراكم النظرات عن المكان، فهو ليس الأيقونة التي تحمل للمؤمنين المجهول الديني، إنما ما تمثله الأيقونة لمجهولهم، أي أنها تجلو في اللحظة الحاسمة كل النظرات، وهكذا تتحرك الرحلة في غموض اللغة لتعبر بشكل صادق عما لم يتكلم به المكان، وهذا التعبير قادر أن يكون متناغما مع الشعر طالما أن الشعر اكتشاف والمكان اكتشاف، وعلى الستارة الجميلة التي تهتز أمامنا ترسم الشمس لوحة ملونة فوق التلال في بلد بعيد لم نزره من قبل، وأمام فاصل من الأشجار الذي يحجزنا، نسمع امرأة تصيح على صديقها من خلف آلاف الحواجز التي تفصلهما... من خلف التلال والشوارع والفنادق والدكاكين.. وهذا الصوت الغريب وغير المألوف والمقال بلغة غريبة عنك، وبنبرة غريبة عنك، وربما أنت لا تعرف اللغة أصلا... هو الذي يصلك وينغرز في ذاكرتك ويرتسم مثل جرح...

إنت تسمع تلك اللحظة هدير الحياة وهو ينبض في هذا المكان، فلن يكون المكان، ولا الظهيرة مهما كان جمالها، ولا الشارع، ولا التلال ولا الأيقونات وهي تحيا بهذا الجمال المطلق دون هدير الحياة الخالد الذي يمنحها قيمتها ويوقعها، لا عند الذين يعيشون اليوم فقط إنما حتى عند الذين وقعوا هذا المشهد ومضوا أيضا، وهذا ما حدث لي بالضبط أمام النقش البارز (الرليف) الذي شاهدته في بريسبوليس في مدينة شيراز في إيران، فقد وقفت مندهشا لا لعظمة الأسلوب الذي صور المعنى إنما للمعنى البشري الذي كان يتضمنه أيضا، فالنقش البارز قد صور الليبيين والأثيوبيين والعرب والرومان وغيرهم... فجعلني أشعر لحظتها بأنني في المكان الحاسم من التاريخ، لا بل شعرت بشكل مطلق أن الذين وقعوا على هذا المكان هم الذين وضعوا المكان في التاريخ، وإنهم ما زالوا في المكان ذاته ولم يغادروا التاريخ.



المكان يبدأ من وجوه الناس لا من اللاشيء أو من راديكالية الفراغ كما كان بورديارد يسميه..هل هناك فراغ حقيقي هل هناك خواء ..بماذا تفيد الرحلة إذن؟ تفيد الحقيقة؟ تفيد الواقع؟ هل تستنفد نفسها؟ ما هي مصادرها؟ ما هي قصديتها؟ ما هي غاياتها؟ وما هي إجراءاتها؟.

ربما تنتهي الرحلة إلى فراغ وربما إلى نص، لكن الفراغ بحد ذاته هو نص وربما أبلغ من كل نص يكتب...لا لأن المكان عصي على التصوير، أو هو أعظم من كل ما نمتلك من أدوات، وهو أثرى وأخصب من اللغة مطلقا، بل أنا أعتقد أن اللغة أعظم من المكان وبها ينخلق المكان أصلا..ولكن الفراغ المطلق يحدث حينما ننطلق نحو المكان ونتحد به..وبذلك يصبح المكان أعظم من النص..فالنص الذي نكتبه ليس بديلا عن المكان مطلقا، مثلما لا يمكن لنص الرحلة أن يكون بديلا عن الرحلة..ولكن النص حضور لغياب، فالمكان يغيب..أو بالأحرى يبقى في مكانه، وما نأخذه من هذا المكان هو النص عنه، هو حضور المكان في النص والذي يتم فيه استحضار المكان الغائب في مكان آخر..

هذا هو نص الرحلة...إزاحة عما تراكم على المكان من نظرات ومن زمن، والرحلة هو ما تكشفه النظرة المتجددة، وهدير الحياة الخالد، واللغة الجديدة، ولذا فإن كل رحلة لا تشبه رحلة أخرى، وكل نص لا يشبه نصا آخر.

ربما يجمد نص الرحلة اللحظة التي تمنع عن المكان الرحيل والذبول، فالمكان يتحمل هذه الحرية ليخلد طويلا ويجعل علاقتنا به أكثر حميمية وأكثر أصالة...بهذا الاعتبار تصبح الرحلة نشيدا، وذات طبيعة نبوئية أيضا، الرحلة هي غريزة أن نأسر المكان داخل النص، وأن نأسر الفضاء داخل الكتابة، ونستحوذ على العالم عن طريق الشعر...فعبر نص الرحلة نقترب من خرائط منتصف الليل لنصل إلى العالم، وربما نصل دون أن نعلم إلى السحر الذي يعلمه أورفيوس في نشيده.



صدر للمؤلف

-بابا سارتر، رواية، رياض الريس ٢٠٠١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦، قصور الثقافة في مصر، ٢٠٠٧. (جائزة الدولة للآداب، جائزة أبو القاسم الشابي).

-شتاء العائلة، رواية، دار الشؤون الثقافية ٢٠٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٦. (جائزة الابداع الروائي)

-صخب ونساء وكاتب مغمور، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ٢٠٠٥، الطبعة الثانية ٢٠٠٧. (منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية).

-الطريق إلى تل المطران، رواية، رياض الريس، ٢٠٠٥ .

-الوليمة العارية، رواية، دار الجمل، كولونيا، ٢٠٠٥ .

-ماسنيون في بغداد، دراسة، دار الجمل، كولونيا، ٢٠٠٥. (شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس).

-مصابيح أورشليم، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦.

-خرائط منتصف الليل، رحلات، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٠٦. (جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي).

-الركض وراء الذئاب، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٧.

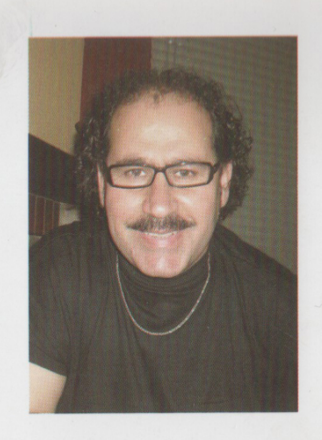


الفهرس





مكتبة
الفكر الجديد



الكتاب

خرائط منتصف الليل هو الكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي، وقد ترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية. هو كتاب رحلات إلى اسطنبول وطهران والجزائر وأثينا وقبرص وباريس، وهذه الرحلات كما يريدها كاتبها "تمرين حي على الشعر..وهي تجديد وانبعاث للجسد مثلما يجدد الشعر بفعالية جسد اللغة ويمنع عنها التكلس والموت. أما الرحالة فهو شاعر تائه تسيطر عليه فكرة عمر الإنسان وعمر الأرض، وروح المكان، إنه شاعر أصيل وغامض، مكتشف رائد، مليء بالأسرار، إنه مثل الشاعر متوحش قليلا، وحيواني أيضا لأنه يفترس الجمال بنهم مثل حيوان جائع.."

علي بدر

روائي عراقي، فازت روايته "بابا سارتر" بالعديد من الجوائز وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية.

ISBN 2-84306-011-X

